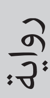
موسم التوت

فيروز عاطف



موسم التوت
رواية
فيروز عاطف
إصدار: نوفمبر ٢٠١٨
رقم الإيداع
2018MO5369
الرقم / العام
978-9920-790-10-9
الغلاف والإخراج الفني:
دار لوتس للنشر الحر
مشروع النشر الحر
رقم الإصدار: (١٢٨)



منشورات دار لوتس للنشر الحر
شركة لوتس للإنتاج والتوزيع
القاهرة الكبرى:
١٦ شارع محمد موسى متفرع من أول
شارع فيصل بجوار محطة مترو فيصل
هاتف: ٠١٠٩١٩٨٥٨٠٩ - ٠١١١٦٣٨٩٣٤٧
الإسكندرية:
٦ شارع بن دينار - محرم بك - امبروزو
هاتف: ٠١٠٦٨٦٣٨٣٧٧
المغرب: الدار البيضاء
٢٧٠ زنقة ١٦ - حي البركة - مولاي رشيد
هاتف: ٠٦٦٤٣٩١٢٦١

مشروع النشر الحر
أول مشروع من نوعه يمنح الكاتب كافة
الحقوق، والحرية الكاملة لنشر كتابه بدون
احتكار لمجهوده في عملية تجارية.

للتواصل مع الدار والمشروع
هاتف / واتس آب:
+2 01091985809 - +2 01116389347
الموقع الإلكتروني:
www.lotusfreepub.com
البريد الإلكتروني
Lotusfreepub@gmail.com
حساب فيسبوك
www.facebook.com/lotusfreepub1
صفحة فيسبوك
www.facebook.com/lotusfreepub



إلى أبي وأمي، من ربياني على أنه لا مستحيل طالما بقلوبنا حلم، فمهما عظمت الأزمات، ومهما خذلتنا الظروف، لابد وأن نتمسك به، فإن أندر الزهور تنبت في أقسى الصخور. إلى زوجي وحبي الأول ورفيق دربي إلى ما لا نهاية، اليد الحنونة والسند، هو من دعمني ودفعني إلى أن أُظهر ما أكن في نفسي، هو من أمسك بيدي يوماً وأخبرني:

عزيزتي احلمي ما تشائين فأحلامي هي أن أحقق لكِ يوماً كل ما تحلمين به.

إلى صفحة (عربيتي) منبري الأول للكتابة، والتي من خلالها أدركت أنه بالعالم الخارجي، وفي كل مكان ما، قد يوجد شخص يود قراءة ما أكتب

لكم جميعاً مني محبة وتقدير حد السماء

مقدمة

جميعنا أصابنا عشق تملك كل جوارحنا حد العذاب..

والبعض أصابه جزء من غدر أيام راحت تتفنن في سلبه ما يهوى

لطالما توقفنا للحظات أمام مرآة أقدارنا نسألها لم نحن من يحدث معنا هذا ولمَ نسلب ما نحب بلا شفقه؟

كثراً بحثنا عن نقطة النور التي ستضيء لنا ظلام دامس أحاط بنا بلا اختيار، بلا إرادة.

لا ندرك أنه بكل محنة منحة عظيمة تنتظر الصابرة قلوبهم

وأنه بالنهاية لابد وأن يولد من رحم الليل الطويل فجراً يعلن أنه لا شيء يذهب هباء

صبرك..

حزنك..

انتظارك المؤلم..

كل هذه الأشياء تحدث لسبب.

فلنؤمن بيقين أنه بالنهاية ما يحدث هو خير حتي ولو لم نكن ندركه في البدايات القاتمة

دعونا نظن بالله خيرًا أن يجعل بداياتنا الجديدة مجزية.. مبهجة.

فيروز عاطف

الفصل الأول

المكان: منزل لأسرة ريفية ثرية في قرية صغيرة من قري مصر الزراعيـة

الزمان: صباح يوم الحادي والثلاثون من مارس

الساعة السابعة صباحاً

كان ضوء الشمس الدافئ لا زال يتسلل إلى شرفات المنازل، ونسيم الربيع يداعب براعم أشجار الفاكهة المتمايلة فتنثر أريجها

بالأفق لتعلن أنه يوم مختلف عن كل الأيام التي سبقته. استقبلت العائلة طفلها الثاني كأنه الشمس التي وهبت للجميع ابتسامة وسعادة هدمت حاجز حزن ظل سنوات عالق بحلق الجميع، كان أحمد يقف إلى جوار سرير زوجته التي وضعت للتو صغيرها الأول

أحمد:

- كيف صرتِ يا حبيبتي؟ أجابته عائشة بصوت اختلطت به مشاعر الفرح وأنات الإرهاق والألم:

- في أحسن حال يا عزيزي، وأخيرًا استجاب الله لدعائنا ووهبنا

كل ما كنا نتمنى، أخيرًا أنجبت لك طفل يحمل قطعة من كلانا

هل رأيته؟ هل أنت سعيد الآن كما أنا سعيدة؟ وهل استطعت أخيرًا أن اسعد قلبك؟ فاقترب منها أحمد وهو ينظر إليها برفق:

- لا يهمني الآن سوى سلامتك أنتِ، سعادتي بسلامتك أهم عندي من الدنيا بما فيها. فابتسمت ثم راحت تسأله:

- هل يشبهك أكثر أم يشبهني؟

ضحك أحمد:

- الآن هو بالتأكيد لا يشبه أحد ولكن قريبًا ستنبت ملامحه

وأتمني من الله أن يشبهكِ أنتِ! فتنهدت وعلى وجهها ابتسامة الفرج بعد الضيق:

- لا، بل أريده قطعة منك تتحرك أمامي فأشعر أنني صرت أمتلكك مرتين، أتمني أن يرث منك كل شيء، لطالما حلمت بهذا. ثم نظرت حولها وراحت تسأله:

- أين هو؟

فأجابها:

- لقد أخذته ثريا لتلبسه ثيابه الجديدة.

- اللهم بارك يا عائشة، ماذا كنت تأكلين ليصبح مولودك بهذا

الجمال أنا لم أرى بحياتي طفل أجمل منه، قالتها ثريا مقاطعة حديثهم وهي تدخل إلى غرفة أحمد وعائشة تحمل الصغير وتضمه إلى صدرها بحنان، ثم أشارت إلى أحمد ليحمله

- سم الله يا عزيزي وخذ طفلك، احمله وكبر له في أذنه اليمنى

ثم أقم الصلاة بالأذن اليسرى واخبره عن اسمه. فالتقط أحمد مولوده في لحظة منتظرة توقفت عندها عقارب الزمن ثم نظر إليه برهبة وذهول، إلى هذا الجزء الصغير الذي انقسم من روحه ليخرج إلى العالم، تسيطر عليه مشاعر الفرح، لا يصدق أنه وأخيرًا جاءت هذه اللحظة، ضم أحمد مولوده إلى صدره برفق وحذر ثم قبل جبينه وفعل كما قالت ثريا زوجة أخيه ثم راح يحمله ليصبح وجهه مقابل وجه طفلة ثم همس له:

- أهلا صغيري، لقد اشتقت إليك حقًا وانتظرتك طويلًا ولكن

لا يهم فالآن أنت هنا بين يديّ، اسمع سأدعوك يوسف تيمناً بسيدنا يوسف، ليكن قدومك فأل خير يهب لنا الله به خيرًا

كثيراً، فإن لكل إنسان نصيب من اسمه. ثم راح يضمه من جديد:

- متى تكبر يا صغيري لأضمك إلى صدري بقوه فأشعر بك

تملأ حضني، أحتاجك أن تصير رجلا اليوم قبل الأمس. وهنا سمعوا جميعا طرقات على باب الغرفة، إنه إبراهيم يستأذن الدخول ليبارك أخاه مولوده وليطمئن على صحة زوجة أخيه

- تفضل يا أبا منى. دخل إبراهيم واحتضن أخاه بشده يباركه ما أتاه الله من فضله وراح يدعوا الله أن يبارك المولود ويجعله قرة عين لأبيه، هو المولود المنتظر الذي وهبه الله إياه بعد سنوات من الصبر والأمل والتضرع. كانت دموع الفرح هي سيد الموقف،

ولتخفف ثريا من حدة الموقف راحت تداعب الجميع بكلماتها المضحكة كعادتها خفيفة الظل مرحه:

- ما رأيك يا أبا يوسف أن نسميه عزيزة لمدة يومين أو ثلاثة، إذا

ما سألنا أحدهم أخبرناه أن عائشة قد وضعت مولودها أنثى وأسميناها عزيزة، فقط يومين حتى نخزي العين. هكذا كانت من عادات بعض القرى التي توارثتها الأجيال جيل تلو الآخر، قد تضع المرأة مولودها ذكر وتظل أيام وأسابيع تلبسه ملابس الإناث وتناديه بإسم أنثى خوفاً من الحسد وظناً منهم أن المولود الذكر يختلف عن الأنثى في هذا الشأن، فالأنثى لا تتعرض للحسد بينما المولود الذكر ليس لديه مناعة ليقاوم حقداً أو حسداً كما يدعون وكما نشئوا ليجدوا أجدادهم يفعلون. تعالت ضحكات الجميع ثم أجابها أحمد:

- لا يا عزيزتي يعلم جميع أهل القرية أنني منذ سنوات أنتظر مولودًا يكسر حزني وألمي وأعلم أن الجميع سيسعد لسعادتي

بل وأرجوا دعواتهم ومباركاتهم جميعًا ليكبر يوسف بها ويصير سنداً وظِل لي على الأرض، يفعل ما أفعل ويكمل ما أبدأ. من خلف والدها وعلى مقربة خطوات من الصغير كان هناك من يراقب الموقف بشغف، إنها منى الصغيرة تراقب الموقف بعينين متلهفتان إلى المفاجأة التي انتظرتها طويلاً، لا تفهم شيء مما يحدث سوى أنها وأخيراً ستحظى بأخ يؤنس وحدتها في بيت كبير جداً لا يسكنه صغير سواها، أشار إليها عمها أحمد لتدخل:

- اقتربي يا منى لتحملي ابن عمك الصغير وتُقبّليه، ولكن

احترسي أن يسقط منكِ. انفرجت أساريرها فور أنت تلقت الإذن بالدخول فهرولت الصغيرة إلى الداخل في سعادة بالغة ثم مدت ذراعيها الصغيرتان لتحمل المولود، وبصوتها الملائكي أجابته:

- لا تخف يا عمي فأنا عمري الآن ست سنوات، إذن أنا كبيرة

وأستطع حمله بمفردي، الله! إنه صغير جدًا جداً ما اسمه؟ فأجابها عمها:

- اسمه يوسف. شهقت منى في براءة:

- الله اسمه جميل يا عمي، ولكن لماذا يغمض عيناه هكذا،

ألن ينظر إلى؟ ومتي سيكبر لنلعب سويا؟ قالتها منى بحماس شديد، لم لا وقد تحقق أملها أخيراً وأصبح لديها أخ مثل الجميع، لطالما شعرت الصغيرة بالحزن كلما رأت طفلة تشابكت يديهما هي وأخيها، لطالما تساءلت في نفسها لم أنا من ليس لدي أخ، كانت منى طفلة بعقل شخص ناضج، شديدة الذكاء، قوية الملاحظة، جميلة نقية كقطرات الندى، عينان واسعتان بنيتان وشعر أسود يلمع كأنه الليل في ليلة بلا قمر، وملامح تشع براءة وذكاء. تعالت ضحكات الجميع ثم راح والدها يحدثها مداعباً:

- ولمَ العجلة يا منى؟! عما قريب ستلعبان وتلهوان كثيراً، فهو

أخيك الصغير الذي سيكون لك يوما من الأيام سنداً وقعت تلك الكلمات على إذن منى لتؤكد لها أنه وأخيراً تحقق حلمها، فراحت تحكم قبضة يديها الرقيقتين على الصغير وتضمه إليها

بحذر وكأنها تتأكد أنه لن يهرب منها. منى هي الابنة الوحيدة لإبراهيم الأخ الأصغر ل أحمد.

أحمد وإبراهيم أخوان كل منهما لا يملك سوى الآخر، نشأ الأخوين سويا لا يعرفان سوى الألفة والمودة، كان كل منهم يرى

بالآخر عالمه وأمانه وحماه، بينهم من مشاعر الأخوة والحب ما لا يحمله الكثير من الأخوة في زمننا هذا، لم يختلفا يوم على أمر، لطالما كانا يقتسمان كل شيء ولا يهنأ أحدهما بشي لم يشاركه به الآخر، عاشا سوياً في منزل ريفي كبير ذو بهو شاسع تحفه أشجار الفاكهة من كل جانب، وأمام البيت تقف شجرة كافور بشموخ وكأنها حارس أمين للبيت وأهله، يقع منزلهم على حافة مزارعهم الشاسعة التي ورثاها عن والديهم، كانت منى طفلة وحيدة لا أخ لها ولا أخت، لم يشأ الله لإبراهيم بإنجاب طفل آخر بعدما تعرضت ثريا زوجته لحادث أفقدها القدرة على الإنجاب، فصارت منى هي قرة عين الجميع وزهرة هذا البيت وشمسه التي لا تغيب، وعلى الرغم من محاولات زوجة إبراهيم إقناعه بالزواج من أخرى لإنجاب طفل ذكر يحمل اسمه، كما جرت عادات القرى، إلا أنه أصر ألا يتزوج حتى لا يحزن قلبها،

هي ثريا ابنة عمومته الجميلة الرقيقة ذات القلب الطيب الذي أورثته صغيرتها، تمتلك ثريا وجه كالقمر المنير، لطالما أسرت قلب إبراهيم بجمالها وحنانها ولسانها عذب الحديث وكلماتها الرقراقة وروحها المرحة الحلوة حتى جعلته لا يرى من العالم

سواها. لم يكن إبراهيم يشعر أنه ينقصه شيء فلقد امتلأ قلبه بحب ثريا ومني، فلم يعد به متسع لشيء آخر، وماذا يريد القلب

أكثر من ذلك، لقد اكتفي القلب حباً وشغفاً، زوجة حنونة محبه وعينا صغيرته اللتان تنبضان بالبراءة، صاروا ملجأً فسكن إليهم في استسلام دون الحاجة إلى المزيد.

لطالما آمنت أن القلب لا يطمع بالكثير وأنه ليس مكاناً ينبع منه الجشع، وأنه إذا ما ظهر الطمع والنهم يوماً فلابد أن له مصدراً آخراً بالجسد بعيداً عن تلك المضغة التي ما وإن صدقت يوماً بحبها وتشبعت منه صارت عمياء لا يعنيها من أمور الدنيا شيء آخر، أما أحمد وزوجته فقد أخذا على نفسيهما عهد بألا ينجبا طفلاً آخر، سيكتفيان فقط بيوسف ،ليصير طفل وحيد مثله مثل منى ابنة إبراهيم، وعلى الرغم من أن أحمد كان يتمني منذ الصغر أن يكن له كثير من الأبناء إلا أن خوفه من أن يجرح مشاعر أخيه بإنجاب المزيد كانت أقوى لديه من دافع الأبوة، خشي أن يرى نظرات العجز في عينا أخيه وزوجة أخيه بكل مره ينجب بها طفل آخر، في حين انهم لم يكن بإمكانهم فعل هذا.

كانت عائشة زوجة أحمد هي نعم الزوجة الودود الطيبة ذات الأصل الطيب والأخلاق الحميدة، امرأة مصرية ريفية كما يجب أن تكون، ذكية، حكيمة، جادة، ذات شخصية قوية لا تمنعها أن تحمل حب أحمد بقلبها ولا تعصي له أمراً ولو كان ثمنه عمرها، يشعرك النظر إليها وكأنك تنظر الي طينة الأرض الطيبة التي منها يخرج الخير فيحيينا جميعاً. حمل هذا البيت كثيراً من مشاعر الحب والدفء، ولربما كان الإيثار هو سر دفء هذا البيت وسعادته. أن تؤثر أحدهم على نفسك في حين أنك تستطع فعل العكس هو شيء عظيم وبحق، ولأن تشعر بأن أحدهم يؤثرك على نفسه لهو أعظم ما قد تحصل عليه يوماً.

الفصل الثاني

نشـأ الصغيـرين سـوياً وكبـراً سـوياً، منـى هـي اليـد الحنـون ليوسـف هـي مـن علمتـه أن يخطـو أولـى خطواتـه، هـي مـن علمتـه أن ينطـق

أولى كلماتـه في الحيـاة بـل وعلى عكـس الأطفـال لـم تكـن أولـى كلمات يوسف أمي أو أبي، بل كان اسمها هو أول ما نطق ولم

يكن شيئا غريبا، لم لا وهي من تلازمه حتى أثناء نومه، فإذا قام

بفعـل خاطـئ أو كسـر غرضـاً هـرول سـريعا إلـى منـى ليتشـبث بهـا ويختبـئ خلفهـا إذ يعلـم أنهـا لـن تسـمح لوالديـه أن يعاقبـاه. نشـأ يوسـف وهـو يحمـل منـى بقلبـه، لقـد كانـت هـي كـل الحيـاة. كـان أيضـا يوسـف هـو السـند والأمـان والحصـن الحصيـن لمنـى رغـم صغـر سـنه ورغـم فـارق الأعـوام بينهمـا واللـذان لـم يمنعـا أن تشـعر أنـه سـندها بوجـه الأيـام- هـو مـن كـان ينتظرهـا بجـوار شـجرة الكافـور أمـام البيـت كلمـا ذهبـت إلـى المدرسـة وغـدت، بـل وكـان يحصـي الدقائـق بغيابهـا، يذكـر جيـدا أول يـوم لـه فـي الدراسـة إذ صـار بإمكانـه الذهـاب معهـا إلـى المدرسـة، لـم يكـن سـعيداً بارتيـاده المدرسـة قـدر سـعادته بأنـه وأخيـراً صـار بإمكانـه الذهـاب معهـا والغـدو متشـابكا الأيـدي، وأنـه لـم يعـد مضطـراً أن يمضـي السـاعات بـلا منـى، لـم يعـد عليـه الانتظـار فـي ملـل البيـت بغيابهـا، كـان يتشـبث بيدهـا بينمـا يسـتكشف العالـم الخارجـي للمـرة الأولـى

بفضول وكلما شعرت مني برهبته نحو شيء شدت على يده بقوه لتعلمه إنها إلى جواره فلا داعي للقلق من أي شيء. مرت الأيام سريعا وصار الطفلين شابان واعيان ناضجان يتقاسمان الهوايات والميول، هي مصدره الأول في كل شيء وهو سندها وفارسها ودرعها أمام كل مجهول، كانت تشد على يده لتشعره الأمان بصغره، والآن، هي من تختبئ خلفه عندما تشعر بأي خطر، كانت منى كأي أنثى ما أن وجدت رجل ذو قلب محب يحتويها بصدق، راحت تستشعر الدفء في نظراته المحبة وترتشف الأمان من أصابعه، كلما احتضن يديها بقوة أو نظر إليها ليهبها الهدوء والسكينة في حضوره. تعلو ضحكاتها عندما يكن بالقرب منها، وتنطفئ شمسه عندما تغيب عنه ولو للحظات، طالما تبعها بعينيه أينما ذهبت وطالما استمدت من تلك العينان قوتها لم يحتاج الأمر كلمات ليعلن كل منهم للآخر حبه، فالأفعال دائماً أقوى من الكلمات، ما وهبه كل منهم للآخر كان أبلغ كثيراً من كلمة تقال وتُنسى وقد لا تُنسى ولكن يتركها الزمان هاوية خاوية بلا معني أو مغزى. صار يوسف شابا قوي البنيان له جاذبيه فريدة ذو عينان تشعان شجاعة ونضجاً، مثقفا حنونا كتوم ذو طباع هادئة، عقلاني إلى أبعد حد، كان فارساً يهوي امتطاء الخيل، لفت أنظار الجميع منذ أن صار يمتلك فرسه الخاص به فكان من عاداته أن يمتطيه كل يوم في وقت الغروب ويركض هنا وهناك حتى صار حلم كل فتاه بالقرية، ولكن ليحلم من يحلم، هو لم يرى من العالم سواها، منى، هي أيضا كان لديها من الأحلام ما يكفي العالم كله أن يعيش في الخيال ألف سنة، ولكن حلمها الأكبر كان يوسف، حمل كل منهم الآخر بداخله وكأنه الخلد يتجسد في إنسان، تشاركا كل الميول والأهواء بل حتى

والأحلام، عدا حلم واحد اختلفا عليه، ذات يوم وفي طريقهما إلى العودة للمنزل يسيران على ضفاف مجري مائي صغير يشق قريتهم شطرين، نظر يوسف حوله وتنفس بعمق ثم قال:

- أتمني أن يأتي يوما ونعبر خارج حدود قريتنا الصغيرة هذه ونجوب العالم سوياً ونسافر من بلد إلى بلد نستكشف عوالم جديده، فضحكت منى وقالت:

- أما أنا فلاَ يشغلني أن أجوب العالم، ولمَ أنظر خارج حدود قريتي الحبيبة في حين أنه بإمكاني أن أنظر إلى ما داخلها؟، إلى

ما يحتاج كل ابن من أبنائها، أتمني أن أغير الواقع المحيط بنا يا يوسف حتى تصير قطعة من الجنة، أحلم لقريتي بمدرسة،ومستشفى، ومتنزه كبير، ومسجد به مصلى للنساء حيث يسمح للنساء بالذهاب إليه لصلاة الفجر، أحلم يا يوسف، ليتك تشاركني حلمي! فابتسم يوسف وراح يطمئنها:

- لا تقلقي يا منى لابد وأن يحل التغيير يوما، فلا شيء يبقى على حاله للابد. كانت منى شديدة الإحساس بكل ما حولها، رحيمة غضة القلب، تنهدت منى بحزن

يوسف:

- ما بك يا منى؟ فأجابته بصوت اختلط بالبكاء:

- تذكرت حادثة عائلة الفخراني، تذكر يا يوسف تلك الليلة

الحزينة؟، لا أنسى الرائحة التي حملها الهواء طوال أيام وليال

بعدها، لا أنسى أننا كنا نخاف المشي بالطرقات كيلا نستنشق تلك الرائحة التي تشبعت بالصرخات والرعب ومشاعر الفزع،

أذكر أننا عشنا أياماً لا نهنأ بطعام أو شراب، لم أكن أنام للحظة واحدة من شدة ما رأينا وسمعنا واشتممنا أيضاً. أجبها يوسف:

- ومن منا لا يذكر، كانت حقاً ليلة من أبشع الليالي وأكثرهم رعباً.

- لقد قتلهم الفقر والجهل يا يوسف، لقد ساعدنا جميعا في حرقهم بسكوتنا عن تدني الأحوال، سوف نُسأل عنهم أمام الله

صدقني.

- ولكننا بالفعل كنا نقدم لهم يد العون.

- لا يكفي يا يوسف لا يكفي، يد العون الحقيقية ليست حفنة

من المال أو بعض من الطعام أو قطعة لحم تسد جوع ليلة أن تجعل شخص لا يحتاجك مرة أخرى تلك هي يد العون بحق،

ابن لهم منزل يمنحهم حياة كريمة، أمّن لهم عمل غير مهين يغنيهم وأطفالهم عن المذلة والسؤال، هذه هي يد العون. كانت عائلة الفخراني تتكون من أب وأم وستة أطفال كانوا جميعا مكدسين في غرفة واحدة لا يمتلكون من العالم سواها، وكعادة القرى قديماً لم يكن هناك وسيلة للإنارة سوى مصباح يدوي الصنع يحوي مادة بترولية سريعة الإشتعال وكأنه قنبلة موقوتة قد تنفجر في

أي لحظة ما إن سقطت أرضاً، وهذا ما حدث. في ليلة شتاء شديدة المطر، قارسة البرودة، توشح ليلها بالسواد، فكانت وبحق ليلة ليلاء لا قمر بها ولا نجمات، وبينما كانوا يغطون جميعاً في نوم عميق سقط المصباح اليدوي على الأرض لينسكب منه الكيروسين فيتسلل إلى أجسادهم النحيلة التي وجدت من أرض باردة افترشوها بقش الأرز ملجأ لها كي تهنأ بنوم بعد يوم طويل من الكد والعمل، وقبل أن تنشط في الفجر مرة أخرى لتدور في طاحونة كسب الرزق ولو كان قليلاً، كان الليل قد انتصف حين سمع كل من بالقرية صرخات مدوية، فهب الجميع ليقدم يد العون إلى المستغيث كما جري العرف، في كل قري مصر، أنه في أوقات الأزمات تجد الجميع يد واحدة، ولكن للأسف حال دون الوصول إليهم سريعاً طرقات القرية التي أغرقتها مياه الأمطار فوصل الناس إليهم متأخرين وللأسف لم يكن الوقت بصالحهم أبداً، قش الأرز والنار والكيروسين تحالفوا سويا ليجعلوا الأمر أسرع، وبشكل مرعب التهمت النيران كل أفراد الأسرة بقسوة بلا شفقة غير مبالية.

- أتذكر يا يوسف انهم لم يجدوا طبيبا بالقرية؟ أتذكر أنه حينما

ركضوا يحملونهم على ألواح الخشب كي يذهبوا بهم إلى خارج

القرية في محاولة لإنقاذهم كانت الكارثة، طرقات غارقة بماء المطر ولا وسيلة مواصلات تربط القرية بما خارجها، ولا يد عون قد تقدم إليهم قبل أن يبزغ الفجر، ثم لا كهرباء أو أي وسيلة

اتصال وكأنما انقطعنا عن العالم وكأنه لا عالم خارج حدود هذه

القرية الفقيرة، مات الجميع واحدا تلو الآخر، رحنا نشيع كل يوم أحدهم وننتظر الآخر لنشيعه في اليوم التالي، أتمني إلا يحدث هذا مرة أخرى، أتمني أن أرى طرق ممهده وأعمدة إنارة بكل مكان وصنبور مياه نظيفه بكل بيت، أتعلم شيئا يا يوسف؟ أنا

أؤمن تمام الإيمان أن العلم هو بداية التغيير، عندما يصبح أطفال

القرية متعلمين، عندما ينير العلم قلوبهم وعقولهم سيتمردون على ما يحدث، سيفهم كل منهم أنه يمتلك الحق بالحياة وأن ما يحظى به ليست بحياة، إن ظلام الجهل هو أساس كل الظلمات

يا يوسف، إذا حدث هذا وانكشفت غمامته عن العيون وقتها فقط سيحين دور التغيير، مدرسة، مستشفى،مكتبة، مرافق، طرق

ممهدة، احلم يا يوسف! احلم! نظر لها يوسف بحب وراح يطمئنها مرة أخرى:

- يوما ما سيكون الحلم حقيقة يا منى، وربما قريبا جدا سيحقق

كل منا حلمه وسيشاركه الآخر.

- عدني يا يوسف أننا لن ندخر جهداً في تحقيق هذا

- أعدك يا عزيزتي

ثم راح يداعبها في محاولة منه أن ينقلها إلى خارج دائرة تلك

الذكري المؤلمة:

- ولكن أولا سنجوب العالم.

فنظرت إليه وهي تدرك ما تقصد فعله، ثم ابتسمت لتعلمه إنها بخير:

– أنت تصر أن تحقق حلمك أولاً، وأنا أحلم أن أحقق حلمي أولاً إذن فلنرى من سيسبق الآخر. كانا قد وصلا إلى البيت لتجد منى زوجة خالها عثمان تجلس مع والدتها

– زوجة خالي عثمان! يااااه! كنت قد نسيتك، يا لها من زيارة غريبة، مرت سنوات قبل آخر زيارة ألقت منى السلام:

– أهلا زوجة خالي كيف أخبارك

– ما شاء الله كبرتِ كثيراً يا منى، صرتِ عروس تسعد العين برؤياها وكأنك حورية فرت من الجنة.

– أشكرك يا زوجة خالي أنت تبالغين قليلاً فضحكت والدة منى ثم أشارت لها بالإنصراف إلى الداخل، فهمت منى بالإنصراف:

– استأذنك يا زوجة خالي سأبدل ملابسي وسنلتقي مرة أخرى

على العشاء ربتت زوجة خالها على كتفها بحنان ثم أجابتها:

– اذهبي يا عزيزتي فليحميكِ الله أنا لن انتظر العشاء، هذه المرة زيارتي سريعة ولكن أعدك أن الزيارة القادمة ستكون أطول.

ابتسمت منى وانصرفت إلى غرفتها لا تفهم شيء مما يجري، وبعد قليل دخلت ثريا إلى غرفة منى لتحادثها قليلا ثم تخرج من الغرفة منزعجة، كان يوسف ينظر ويراقب عن كثب في المساء وبعد أن تناول الجميع الطعام اجتمع منى ويوسف كعادتهم على

أريكـة كانـت بفنـاء المنـزل بالقـرب مـن الشـجرة حيث كان المـلاذ للجميـع، كان أحمـد وإبراهيـم وزوجاتهـم مـا إن حـل الظـلام حتـى افترشوا أرض هذا الفناء في جلسة دافئة تنير الليالي كالقمر، كان صـوت أم كلثـوم ورائحـة الخشـب المحتـرق وطعم كوب من الشـاي همـا وجـه كل مسـاء، بـدا وكأنهـم يتحدثـون فـي أمـر هـام للغايـة، مـن خلفهـم وعلـى بعـد خطـوات قليلـة يوسـف ومنـي يجلسـان علـى أريكتهـم يسـتذكران أو يقـرآن كالعـادة. طـوي يوسـف الكتـاب ونحـاه جانبـا ثـم همـس إلـى منـى:

- لم تخبريني يا منى، لماذا جاءت زوجة خالك لزيارتكم اليوم؟

قالهـا يوسـف بصـوت يمـلأه الخـوف فقـد كان قلبـه يحدثـه عـن شـيء ولكنـه لا يسـتطع مواجهـة نفسـه بـه، تركـت منـى الكتـاب مـن يدهـا أيضـاً وهـي تشـيح بنظرهـا بعيـداً عـن يوسـف متعمـدة ألا

تلتقـي أعينهمـا، ثـم أجابتـه بحـزن:

- جـاءت تخطبنـي لابنهـا.. صمـت يوسـف للحظـات كأنـه كان ينتظـر مـن منـى أن تكمـل حديثهـا، ولربمـا مـا جعلـه يصمـت هـي عيـون منـى التـي تدمـي حزنـاً، كانـت قـد بلغـت منـى عامهـا الخامـس والعشـرون دون زواج إذ كانـت ترفـض كل مـن تقـدم لخطبتهـا. منـى فتـاة جميلـة، متعلمـة.

ذات عقـل ناضـج وروح حلـوة وأصـل طيـب، كل هـذه مقومـات جعلـت منهـا العـروس المثاليـة لـكل أسـرة تبحـث لولدهـا عـن زوجـة، لطالمـا تقـدم الكثيـر مـن شـباب القريـة لخطبتهـا، ولطالمـا رفضـت معللـةٌ رفضهـا بعـدم اسـتعدادها لقـرار كهـذا بعـد، ورغـم أنـه كان

وضعاً شاذاً بل ونادراً ما يحدث في قرية كهذه حيث جرى العرف في القرى أنه ما إن تخطت الفتاة عامها الثامن عشر بلا زواج فإنها قد وقعت في بئر العنوسة.

وما هي العنوسة ومن أين لهم بتلك الكلمة، لم صارت الفتاة هي فقط زوجة لزوج وأم لأطفال وربة منزل أفضل ما تستطع القيام به هو

المهام المنزلية، ولم لابد لها من الزواج مبكراً، لم لا تستطع أن تنظر خارج سنوات عمرها لعل أشياء أخرى تنتظرها بعد عامها

الثامن عشر غير الزواج، ولماذا حددت العادات والتقاليد مدة صلاحية للفتاة بينما قد يكن هذا السن هو بداية استكشافها

لعالمها الخارجي، لميولها وأحلامها، ولربما لا زالت تحاول أن تستكشف ما بإمكانها أن تفعل وبماذا تستطع أن تشدو. كم من طبيبة ماهرة، وكم من عالمة نابغة وكم من رسامة موهوبة وكاتبة دفنتها العادات والتقاليد في لحد "أنت زوجه فقط والوقت ليس بصالحك فلتلقي بنفسك الآن قبل أن تسرقك سنوات عمرك.

قديما كان الفراعنة يلقون بالفتيات الصغيرات لنهر النيل كقربان والآن وبعد آلاف السنين لا زلنا نمارس عاداتنا و بإصرار مبالغ فيه، لا زلنا نلقي بأجمل الفتيات للوقت كقربان خشية أن يسرقهم من أكبر مخاوفهم ألا وهو شبح العنوسة، فيصرن وكأنهن عنب حصرم لم ينضج بعد.

ثم يدخلن إلى هذا العالم وهن لا يدركن ما يجب أن يحدث،

فقط يضعن رؤوسهن على الوسادة ليلا ليباغتهن الصباح وقد صرن زوجات يحملن مسئولية بيت وزوج وأطفال، أطفال تربي أطفال بلا خبره ولا فهم، وفي النهاية يخرجن لنا جيلا مشوه فكريا لم يكتمل نضجه ولن يكتمل للأسف، لأجل كل هذا احترم والدا منى قرارها ولم يرغماها أبداً على الزواج. انتفض يوسف ثائراً محدقاً بها بعينيه اللواتي كانتا تشتعلان كبركان ثائر:

– زواج من؟ أنت لي أنا فقط. حاولت منى أن تهدئ من روعه كيلا يلحظ والداهم شيئا:

– من فضلك يا يوسف اجلس ولا تلفت النظر إلينا، صدقني أنا لك أنت وحدك، ولكن.. لقد نفذت أعذاري وينفذ الوقت منا، حبيبي أنا أرى الحسرة بعينا والداي كلما تزوجت إحدى الفتيات اللواتي تصغراني أعواماً، صل وادعو الله معي يا يوسف ألا يفرقنا، فلا حياة لي بدونك والوقت عدونا

أدعو الله كثيرا يا يوسف أن نستطع النجاة بحبنا من هذه العاصفة أيضا، فهذه المرة ستكون الأصعب، فأنا للمرة الأولى ألمح هذا الحماس بعيون أمي، أنت تعلم كم كان يعني خالي عثمان لأمي ومن بعده ابنه، رائحته في الحياه وظله الذي تبقي منه بعد أن رحل، لا أظن أن أمي ستخذل زوجة خالي أبدا

حتى أبي للأسف أرى منه ما لا يطمئن ولا اعلم ماذا سأفعل؟

أنا أخاف أن أعصي أمر أبي إذا أصر على رأيه ووافق على خطبتي، لم لا تذهب أنت لخطبتي يا حبيبي لربما وافق والدي ووالدك وصرنا معاً. جلس يوسف منهكاً مما سمع وكأنه كان

يركض منذ زمان ثم نظر إليها بحزن وراح يحدثها بصوت مرتعش:

- نعم لقد حان وقتها، في الصباح سأذهب إلى أبي واطلب منه خطبتك، ولا تخافي أنا بجانبك.

فابتسمت له عيناها التي توشحت بالعبرات.

الفصل الثالث

في صباح اليوم التالي كان يوسف قد عقد النية أن يتوجه إلى والده ليطلب منه خطبة منى، مشى يوسف مثقل الخطى، مهموماً، يخشى أن يرفض والده طلبه للحياة.

– هي الحياة، هي كل ما أرى وكل ما أتمني أن أرى، هذا أمر ليس بسهل على أن أشعر بأن أحدهم يحاول التسلل إليها ويطلبها زوجه، التفكير في هذا الأمر يمزقني، ليس عدلاً أن

اضطر لتبرير طلبي بالزواج منها، ليس عدل أن أقف أمام أبي ولا أجد الكلمات. قطع يوسف الطريق من المنزل إلى الحقل بعيداً، كانت خطواته تسارع الزمان وكأنه يعدوا إلى الخلف لا الأمام، يخشي ما قد يحدث ولا يحدثه قلبه بالخير، بجوار شجرة التوت كان والده يقف يراقب العاملين المنهمكين بالحصاد

– أبي كيف حالك؟

انتبه أحمد إلى وجود يوسف

– يوسف؟ ماذا أتى بك إلى الحقل؟ هل حدث مكروهاً

لأحدهم بالبيت؟

– لا يا أبي اطمئن كل شيء على ما يرام.

- إذا ماذا حدث يا بني؟ لم أعهدك تأتي إلى حقل باكراً هكذا.

- جئت أحدثك بأمر خاص بي يا والدي. أمسك أحمد بيد ابنه وسار به إلى الظل ثم تناول القليل من الماء وجلسا معاً أرضاً، اتكأ أحمد منتبهاً إلى يوسف:

- اجلس إلى جواري يا بني وهات ما عندك كلي آذان صاغية. راح يوسف يبحث عن الكلمات فلم يجدها، هو يعلم أنه لربما

يقابل طلبه بالرفض نظراً لصغر سنه فلم يكن يوسف قد أتم عامه

التاسع عشر بعد ولا يعلم ماذا يفعل إذا قوبل طلبه بالرفض، فهو لم يعتاد أن يعصي أمر والده يوماً، تنفس يوسف بعمق ثم استجمع شجاعته:

- أبي أنا أريد الزواج. نظر أحمد إلى ابنه محدقاً يكاد لا يصدق ما يسمع، فلطالما كان يوسف كتوماً لا يظهر مشاعره، يبدو صلباً، قاسياً، لا يشغله شيء من أمور الحب، لطالما كان قلقاً عليه إذ لم يكن يفعل ما يفعله الشباب في مثل عمره، كانت حياته تنحصر بين كتبه وأوراقه وغرفته فقط.

- تتزوج يا يوسف؟ لم لا هذا يوم أحلم به يا بني، ولكن من هذه التي أسرت قلبك واقتحمتك أيها الغامض. فدب الأمل داخل "يوسف،" وتشجع ثم نطقها بكل حماس:

- هي منى يا أبي

فاتسعت عينا أحمد وانطفأت تلك اللمعة بهما ثم استطرد قائلا:

- منى من؟!

وهنا قفز هذا الخوف مجدداً إلى صدر يوسف وراح نبضه يتسارع:

- منى ابنة عمي إبراهيم يا أبي.. نهض أحمد من جلسته وهو غاضباً، ساخطاً، على يوسف يزمجر بكل قسوه:

- اليوم يا بني؟! تطلب منى خطبة منى اليوم يا يوسف، لا منى

لا، اطلب منى أن أزوجك بأي فتاة من فتيات القرية، لكن منى

لا. هب يوسف واقفاً:

- لماذا لا يا أبي؟ منى هي ابنة عمي التي نشأنا سوياً، بيننا حب لا يخفي عن الجميع.

- يا بني هذا لن يجدي نفعا لسببين أولا أخاف أن يظن الناس أنني خطبت ابنة أخي الوحيدة لابني الذي يصغرها أعواماً طمعاً

في أموال أخي، ثانيا إنها بالفعل قد تقدم ابن خالها لخطبتها أمس وتحدث عمك معي في هذا الأمر وكان سعيد جداً، الشاب طبيب مجتهد وابن خالها ويكبرها سنوات هو بالفعل زوج مناسب يا بني فلم نهدر فرحة عمك وزوجة عمك.

- لا يهمني كل هذا ولا يهمها أيضا، كل منا لا يريد سوى الآخر وأنا أصر على رأيي، ولن أتزوج سواها ولا تجبرني أن أعصي أمرك للمرة الأولى بحياتي أو أتصرف بشكل يغضب قلبك عليّ. عاد يوسف إلى البيت يجر أذيال الحسرة، كانت منى

في انتظار عودته، استقبلته بعيون يملأها التمني، سألته بلهفة:

- ماذا فعلت؟

فأجابها بخيبة أمل:

- لقد رفض طلبنا الذي قدمناه إلى الحياة، رَفضت الحياة أن نحيا يا مُنيتي، لقد علل والدي رفضه بأن الجميع سوف يظنون أنني سأتزوجك طمعاً بميراثك نظرا لفارق السن بيننا. جلست منى منهزمة شاردة الذهن يائسة:

- تباً للناس ولسنوات عمرنا، أنا أحبك يا يوسف ماذا سنفعل إذن؟

- لا أعلم ولكني سأحاول ثانيا وثالثاً، سنحاول سويا مراراً وتكراراً، وإن لم يكن سنهرب بعيداً ونتزوج، نحن من علينا أن

نصنع أقدارنا لا تحكماتهم ولا أحاديثهم المهترئة البالية. كان أحمد نموذج للرجل الريفي، أجش الصوت، قاسي القلب إلى حد ما، يحب ابنه حباً كبيراً ولكنه أيضا كان شديد التمسك بالعادات والتقاليد والتي كانت تتعارض وبشدة مع أن يتزوج شاب بفتاة تصغره أعواماً إلا إذا كان هناك دافع لذلك، في حالة يوسف رأى أن جميع من بالقرية سوف يفسرون هذه الزيجة الغريبة أنها مجرد طمع في ميراث ابنة أخيه الوحيدة، وستنسج روايات حول قصة الحب التي نشبت بينهم في وضع غير مألوف، ومن هنا ستخرج ألف حكاية عن رفض منى لكل من تقدم لخطبتها ثم ألف كيف ترفض طبيب له مستقبل مشرق لتقبل بصبي لم يرسم

خريطة مستقبله بعد!؟

علم أحمد في قرارة نفسه أن هذا الزواج سيكن بمثابة بوابة مرور لكثير من علامات الاستفهام التي لا داعي لها

- يا الهي دبرني، ولم أوافق على كل هذا، ولم أجلب لأخي ولي

ولبيتنا الهادئ كل هذا العناء، وماذا سيقول عني أخي وزوجة أخي عندما أطلب منهم أن يزوجوا ابنتهم الوحيدة لابني الذي

يصغرها سنوات ويتجاهلوا شاباً كعادل. قضي أحمد الليل بطوله يبحث عن حل لا يهدم ما بينه وبين ولده وفي نفس الوقت يزيح تلك الفكرة من رأسه، في صباح اليوم التالي ذهب أحمد إلى الحقل شارد الذهن مهموم، لم يكن يتخيل أن تلك النبتة كانت تنمو أمام أعينهم جميعاً ولم يلحظها أحد

- كيف لم أنتبه أن ولدي الصغير الذي ربيتيه بيداي أصبح عاشقا؟ كيف لم ألمح الحب بصوته؟ هل لأنه بطبعه شخص كتوم أم أنا من انشغلت عنه فلم أعره انتباها كافيا كي أرى أنه

صار شابا؟ ليتني أعطيته المزيد من وقت! هي غلطة أجيال بأكملها، جميعهم يقعون بنفس الخطأ، كثيرا من الآباء يظل غير مدرك أن طفله كبر وصارت له متطلبات جديدة، لم يعد طفله الصغير الذي يطير فرحا بلعبة أو قطعة حلوي، هي للأسف كارثة متوارثه من جيل إلى جيل، لم لا يوجد لدي بعض الآباء عيون تضع الأشياء بنصابها الحقيقي؟ لم لا يلحظوا أن صغارهم فاقوهم طولاً!؟ لم لا ينتبهوا أن صغارهم صار لديهم

قلوب تحب وتسعد وتحزن وتدمي ألماً؟ وما هذا الإصرار الغريب على الاستهانة بمشاعر الأبناء؟ ألم تكن يوما شابا؟ ألم تتمنى يوما أن يجلس والدك إلى جوارك ثم تتقاسمان معا الحديث عن فتاة تعلق بها قلبك؟ ألم تتمنى أن يجد معك حلاً لمشكلة لم تستطع الإفصاح عنها لأحد؟

- الآن أنا أقف بين ندمي وحيرتي من أمري، لا أعلم كيف أحيده عن رأيه وفي الوقت ذاته لا أريد أن أخسره، ألهمني سبيلا

للنجاة يا الله. وبينما كان أحمد شاردا يكاد يشنقه حبل أفكاره المضطربة المؤذية قفزت فكرة إلى ذهنه فجأة بدت وكأنها طوق نجاة سينقذ الموقف. عاد أحمد إلى البيت باكرا على غير عادته، فوجد عائشة تعد طعام الغداء.

- مساء الخير يا أم يوسف

- مساء البركات يا أبا يوسف، لم أنته بعد من إعداد الطعام.

- لا عليك يا عزيزتي فأنا لست جائعا.

فتركت زوجته ما بيدها وجلست إلى جواره على تلك الأريكة

- ما بك يا أبا يوسف ولِمَ عدت باكرا على غير عادتك.

- لا شيء يا عزيزتي فقط أشعر ببعض الإرهاق، أين يوسف لا

أراه؟ فنهضت والدة يوسف تهم بإحضار كوب من الماء إلى أحمد

- تفضل عزيزي تناول بعض الماء، يوسف بغرفته منذ أمس ولم

يخرج اليوم قط، حتى أنه لم يتناول إلى الآن أي طعام، يقلقني أمره ولا أعلم ماذا أصابه، وأخشى أن أسأله فأزعجه، لربما أراد الاحتفاظ بأمره الذي يحزنه لنفسه، وأيضا ماذا إذا رفض الحديث معي؟ أنت تعلم جيدا أنه كتوم لا يتحدث كثيرا، ليتك

تذهب إليه وتسأله عما يحزنه. فتنهد أحمد بحزن عميق:

– استغفرك ربي وأتوب إليك، لا تقلقي يا أم يوسف خيرا أن شاء الله، سأذهب إليه. راح يقدم ساق ويؤخر الأخرى في قلق وتردد وحزن، طرق الباب، فلم يجبه يوسف، ففتح الباب ودخل إلى الغرفة فإذا بيوسف مستلقيا في سريره، كان يعلم أنه يتظاهر بالنوم تحاشيا للحديث معه، جلس أحمد إلى جواره، ثم راح يربت على كتفه:

– بني أنا أعلم أنك لست نائما، وأنك تتظاهر بالنوم سخطاً عليّ وكنوع من التعبير عن غضبك، لا أخفيك سرا يا ولدي أنا

حزين أكثر منك، فهذه المرة الأولى التي أراك تتشبث بقرار أنا أرفضه، ولربما المرة الأولى التي أراجع نفسي وأسألها، هل حقا أنت على خطأ أم أنه ربما أنا المخطئ، دعك من هذا كله وأنهض لنجلس سويا. لم ينبس يوسف ببنت شفه وكأنه يخبر والده أن هذا ليس ما تمنيت سماعه منك، فتنهد أحمد يائساً:

– لا تجيبني إذن، حسنا يا أستاذ يوسف مع أني كنت أحمل إليك خبرا ساراً، هب يوسف واقفا فوق سريره وينظر إلى والده مستبشرا وعيناه معلقتان بوجهه ينتظر كلمات قد تمنحه الحياة:

- حقا يا أبي؟

فضحك أحمد ثم اعتدل بجلسته:

- الآن ترد على، حسناً حسناً، لله الأمر، اسمع يا بني لقد خطرت لي فكرة أرجو أن تلقي استحسانك، ستحل لك الأمر، إذا نفذت ما سأقوله لك، حينها لن يكون هناك حرج من زواجك بابنة عمك! فانفرجت أسارير يوسف ودب الحماس مجددا بصوته:

- حقا يا أبي، سأفعل كل ما تمليه علي

- اسمع يا بني أليست مشكلتنا الآن هي أنك بنظر الجميع لا زلت صغيرا لا تستطيع تحمل مسئولية بيت وزوجه؟ وأن كل

من بالقرية سيظن أننا زوجناك من ابنة عمك فقط للاستيلاء على ميراثها؟ إذن لم لا نثبت لهم العكس؟

- ولكن هذا ليس صحيحاً.

- أعلم يا بني، أنا أعلم وأنت تعلم، ولكن لا أحد سوانا يعلم هذا.

- ومالنا وما لسوانا بأمور لا تعنيهم.

- خطأ يا بني، نحن نعيش معهم، جزء لا يتجزأ منهم، لابد وأن نكترث لما يحدث حولنا

- ولكن يا أبي هم يتحدثون في كل الأحوال.

- يبدو أنك لا تريد حلاً لأمر، أنت فقط تريد الجدال

- لا يا أبي لا، أنا معك في أي حل تكن نهايته زواجي بمنى، قل لي خطتك وإن شاء الله ستجدني طائعاً لكل ما ستمليه علي.

- ما رأيك أن تسافر بعض الوقت وتصنع أموالك الخاصة بك، وعندها سيعلم الجميع أن لك مالك الخاص وأنك رجل يعتمد عليه بعيداً عن أموال والدك ووالدها، ولن يتجرأ أحدهم على

النطق بكلمة. كانت فكرة في منتهي الذكاء من أحمد، لقد استغل شغف يوسف وتوقه إلى السفر فوضع له السم بالعسل ظناً منه أنه بهذا سيقصيه قليلا إلى أن يتم زواج منى من أحدهم ثم يعود يوسف من جديد ليكون أمام أمر واقع وبعد قليل من محاولات الاستجداء سيسامحهم ويعود كل شيء كما كان ولربما زوجاه بأخرى تنسيه منى أيضا، قمة الاستهانة هو أن تقرر مشاعر غيرك ولا تحسب عواقب لقرارك، قمة الأنانية هي ظنك بأن ما رتبت وقررت سيتناسب مع ما أردت دون أن تأبه لما قد ينكسر ولا تستطيع إصلاحه، جلس يوسف يفكر قليلا ثم نظر إلى والده وأجابه

- حسنا أنا موافق، ولكن إلى أين؟

فوضع أحمد يده على كتف يوسف وكأنه يشجعه بحماس:

- العراق.

- العراق؟

- نعم يا بني، فكل شباب القرية سافروا وعادوا محملين بالأموال التي لا تنقصنا يا ولدي ولكن ينقصني أن أثبت لأخي وكل من بالقرية أن ابني أصبح رجل يستطيع تحمل مسئولية بيت بمفرده بعيدا عن أموال والده وأنه وبحق صار رجل يستطيع أن ينبي نفسه من اللاشيء فلا ينافسك عليها أحدهم.

جلس يوسف صامتاً لبرهه ثم سأل والده:

- ولكن ماذا عن عادل ابن خالها؟

فأجابه والده:

- لا تخف اعتمد علي سأحاول تأجيل هذا الأمر قليلا ولكن

اجتهد أنت قدر المستطاع يا عزيزي. كان اختيار آخر في منتهي الذكاء من أحمد، إذ كانت العراق الحل الأمثل، فالسفر إلى العراق وقتها لم يكن يشترط سن ولا يشترط مؤهل ولا مهنة معينة مما سهل الأمر على كثير من الشباب السفر إليها بلا كفيل ولا شروط، في هذا الوقت كانت العراق قد جندت معظم شبابها في حربها ضد إيران ما ترك سوق العمل خاويا وأتاح الفرصة لكثير من المصريين حينها الدخول إليها والعمل بها، كان حقا حل سريع بلا عراقيل

- إذن سأسافر يا أبي إلى العراق

الفصل الرابع

في صباح اليوم التالي التقي يوسف بمنى، كانت تنتظره على أحر من الجمر، تنتظر كلمات إما أحيتها أو أماتتها

- منى لقد وجدنا الحل

- حقا يا يوسف.

- نعم يا مونيتي، أنا سأسافر إلى العراق لأجمع المال وأثبت للجميع أنني أصبحت رجلا أستطيع تحمل مسئوليتك بمفردي بعيدا عن والدي ووالديك ولأثبت لهم أنني وبحق جدير بك فنظرت إليه منى بعبوس وقد تغيرت نبرة صوتها:

- ولكن يا يوسف هذا الحل في منتهي الغرابة، هو ليس حلاً بل هو نفي، ولم تقذف بنفسك إلى منفي وحيدا بعيدا ببلد لا

تعرف أحد بها؟ لا يا يوسف هذا لا يرضيني، ولن أسمح لك أن تهدر أجمل سنوات عمرك في غربة وحيدا، ولم كل هذا؟ أنا

لا أرى مبرر لهذه الغربة ولا أرى أي جدوي منها، لا، لا تذهب. فأمسك يوسف بيديها بين يديه وراح يطمئنها:

- أنا أرى يا منى، سأذهب حتى نلتقي، أنا سأفعلها بكل سرور إذا كانت آخر قطرة من دمي هي برهان أنني جدير بك فسأنزفها بكل سرور. قاطعته منى بحزن:

- لا يا يوسف قلبي غير مطمئن، قلبي ينذرني بأنه لا خير لنا

في هذا الأمر، فلا تذهب أرجوك، أما من حل آخر؟ راح يوسف يطمئنها للمرة الثانية في محاولة منه لإقناعها:

- منى! هذا شرط أبي الوحيد، ولم لا يا حبيبة الروح، أنا على استعداد أن أذهب إلى آخر العالم وأحصد المال سريعا ثم أعود به إليك وأخطفك إلى رغما عن الجميع، فنظرت إليه منى بحزن ثم أجابته:

- افعل ما تشاء! ولكن تذكر قولي لك بأنني غير مطمئنة لهذا الأمر يا يوسف، أنا لا أدري ما إن كنت أستطيع أن أتحمل غيابك أم سأموت هنا من الشوق إليك كزهرة حرمت عليها الشمس. فشد على يدها بحنان وراح يطمئنها:

- لا تقلقي يا أملي أعلم أنني سأعود يوما لأراك تقفين هنا مستندة إلى شجره الكافور التي شهدت طفولتنا تنتظرينني عائدا إليك حاملا بيدي إذن المرور إلى عالمنا الذي حلمنا به يا أميرتي. كان يوسف يطمئنها في حين أنه أشد من يحتاج إلى من يطمئنه، لقد كان هو الآخر يشعر بشيء سيء يلوح بالأفق

ولكن لم يستطع البوح. وعلى عجالة تمت إجراءات السفر وجاء اليوم الموعود، في الفجر وبعد أو ودع يوسف غرفته وحمل

حقيبته التي جمع بها كل صور منى وكل ما يحمل لمساتها، لم يكن يريد ملابس ولا كتب ولا أي شيء سوى تلك الزهرات التي أهدته إياها منى وجففها بين طيات الكتب، لم يأبه لأي

شـيء سـوى رائحتهـا بـكل شـيء. مـن أمـام المنـزل وعلـى مقربـة خطـوات مـن الرحيـل كانـت النظـرات ابلـغ مـن الكلمـات بكثيـر

- سأسـافر يـا منى، سأسـافر عنـك حتى تكونـي ملكـي وحـدي

ويعلم الله مدي عذابي من الآن وأنا أتخيل أنني سأذهب إلى بلد لـن يختلط هواءه بأنفاسك.

- بـل أنـا مـن سـترتمي بأحضـان غربتـي يـا يوسـف فبـلا وجـودك سـيصبح كل شـيء حولـي غربـة، لـن يعـود الصبـاح ككل صبـاح

سبقه ولـن تكـن الشـمس أبـدا هـي نفـس الشـمس، سـتذهب يـا حبيبـي و تأخـذ معـك أنفاسـي ولتعلـم جيـدا أننـي سـأحيا هنـا بـلا

أنفـاس حتـى تعـود إلـى ثانيـاً. راح يوسـف يـودع كل شـيء حولـه، خـرج مـن البيـت إلـى غربـة لا يعلـم كـم سـتلتهم مـن سـنوات عمـره، قـذف بنفسـه إليهـا طوعـا داعيـاً اللـه إلا يعـود بخفـي حنيـن وإلا تذهـب سـنوات عمـره أدراج الريـاح.. ابتعـد خطـوات قليلـة عـن المنـزل فـي اتجـاه السـيارة التـي سـتقله إلـى المطـار ثـم نظـر خلفـه، كان كل من بالمنزل قد خرجوا لوداعه، ولكنه لم يأبه بأحد سوى والدته التي انعكس انفطار قلبها على عينين دامعتين حد الدماء، ومنى التي تقف مستندة إلى جذع شجرة الكافور لا تبكي ولكن يطغي على ملامحها شيء أكبر من الحزن والبكاء، راحت عيناهـا تتوسـله العـودة، تتوسـله ألا يرحـل عنهـا فـي محاولـة أخيـرة يائسـة.

- ستعود يا يوسف لتجدني لا زلت أقف هنا انتظرك

- سأعود، لابد وأن أعود يوما

مر شهرين على سفر يوسف، مروا وكأنهم الدهر كله، كان عزاء منى الوحيد هو التماس رائحة يوسف بكل مكان جمعهما سوياً،

ولربما كان أهمهم هو مكانهم المميز في ظلال شجرة التوت التي زرعاها بيديهما سويا وراقباها تكبر وتثمر، لطالما التقيا بظلالها صغيرين يلهوان لا يدركان ما تخبئه لهم الأيام. أسندت منى ظهرها إلى الشجرة وتنهدت بعمق ثم أغمضت عيناها وراحت تتخيله يجلس أمامها فتحادثه وينظر إليها:

- لم يعد يشعر بي أحد بعد أن رحلت عني يا يوسف، لم يعد أحد يكترث لأمري سوى أشجارنا وأوراقنا وبعض الصور التي جمعتنا صغيرين سعيدين يضيء كل منا عالم الآخر قبل أن يحل بأيامنا هذا الضباب، لم تثمر شجرة التوت هذا العام يا حبيبي، وكأنها أبت أن تؤتي ثمارها بغيابك وكأن روح هذه الشجرة قد التحمت بأرواحنا الذابلة وانضمت إلى صفوفنا لتعلن العصيان

والاعتراض على هذا الفراق الذي لا جدوي منه سوى الألم والمزيد من الشقاء لأرواحنا الغضة، أنا هنا أجلس لأحدثك بغيابك ويجيبني سراب أملي، وما الجدوى من هذا الفراق لا

أدري. انصرفت منى إلى البيت تتهاوي، تتخبط، تكاد لا تعي شيئاً حولها، تشعر وكأن سعادتها غادرتها بلا عودة، لا تري مفر من آلامها تلك ولا تعلم لم هذه المرة فقدت الأمل، لطالما كانت

متفائلة وتنظر إلى الحياه بمنظار وردي، كانت تؤمن بأن لكل ليل فجر، وللمرة الأولى بعمرها تفقد الأمل بشيء، لربما كان هذا الليل أدعى بالتفاؤل من كل ليل سبقه، ولكن كيف وقلبها الذي

لـم يكـذب عليهـا يومـا ينبئهـا أن شـيء سـيء يلـوح بأفـق حياتها ولربما أكد شعورها شجرة التوت التي لم تثمر فصارت نذير شؤم أغلق كل مداخل التفاؤل إلى قلب منى الدامي. وصلت غرفتها فألقـت بنفسـها إلـى أوراقهـا وقلمهـا الحزيـن فـي صمـت وكأنهـا خاويـه بـلا حيـاة وراحـت تكتـب لـه خطـاب

ـ حبيبي يوسف.

مر شهرين منذ رحيلك، اشتقت لك يا نبض روحي بل واشتقت

لأنفاسـي التـي غادرتنـي يـوم أن غادرتنـي أنـت. اليـوم كنـت أزور شـجرة التـوت خاصتنـا، لـم أجـد بهـا ثمـاراً يـا يوسـف، لقـد ذبلت زهورهـا وعقمـت وكأن موسـم التـوت ضـل طريقنـا بغربتـك عنـا، بـل وكأنـه أضـاع طريقنـا متعمـداً، متمـرداً. صرنـا أنـا وشـجرة التـوت بـلا أزهـار، بـلا ثمـار، بـلا حيـاة يـا رفيـق روحـي، وكأنـك أخـذت الربيـع معـك. تـرى يـا يوسـف هـل ستثمر شـجرة التـوت مـن جديـد؟ أم عقمـت إلـى الأبـد؟ لا أدري كيـف أخبـرك هـذا ولكـن أنـا خائفـة بشـدة، لقـد صـرت وحـدي أقـاوم وأحـارب وشـراع مركبـي راح الوهـن يتمكـن منـه، أخشـي الاستسـلام، ولكـن إذا مـا حـدث واستسـلمت يومـاً، فسـيكون هـذا صدقنـي ليـس أي شـيء سـوى سـقوط فـارس مـن علـى جـواده فـي سـاحة معركـة حـارب بهـا لآخـر قطـرة مـن دمـه وأنـه لـم يبـق بـي دمـاء يـا حبيبـي، أي سـأحيا جسـد بـلا روح فـإذا مـا حـدث هـذا أرجـوك، استسـمح روحـك الطيبـة أن تسـامحني وتصفـح عنـي وتغفـر لـي سـقوطي وانهزامـي، سـتحيا بداخلـي حتـى وأن فرقتنـا الأيـام والمـوت، لـن أغـادرك يـا يوسـف، أعـدك، سـتعود لتجـد رائحتـي تنتظـرك) وبينمـا كانـت علـى هـذه

الحال غارقه بخطابها إذا بوالدتها تطرق باب الغرفة:

- منى، هل أنت نائمة؟ أسرعت منى بتجفيف عبراتها وتنفست بعمق، ثم أخبأت ورقتها في كتاب كان أمامها ثم نهضت عن سريرها وجلست أمام المرآة في محاولة منها أن تخبئ حالها الذي لا تريد أن تراها عليه والدتها.

- لا يا أمي، ادخلي أنا أمشط شعري

دخلت والدة منى مبتسمة سعيدة فاحتضنتها ثم قامت بتقبيل رأسها بسعادة

- يا لي من محظوظه بك، أنا أحسد نفسي أنك ابنتي حقا، فليحميك الله ويهبك أياما سعيدا تعوضك سنوات عمرك التي

هدرت في ترهات، انهضي عزيزتي بدلي ثيابك تلك وغسلي وجهك الجميل وتعالي إلى في غرفة الصالون فهناك من ينتظرك.

نظرت إليها منى باستغراب متسائلة:

- أنا! ومن سيأتي لزيارتي في هذا الوقت؟!

- جاء الدكتور عادل ابن خالك عثمان رحمة الله عليه لزيارتنا

ويريد رؤيتك. فجلست منى وهي تزفر:

- أمي أرجوك لا تفعلي هذا، أنت تعلمين جيدا أنني بمزاج لا يسمح لي أن أقابل أحدهم، ثم أن عادل هذا لا يروقني الحديث معه وسأكون مملة جدا، دعك من هذا وأخبريه أنني نائمة ثم

قفزت منى إلى سريرها وتظاهرت بالنوم.

- منى! ماذا تفعلين؟! أنا أخبرك أن ابن خالك جاء خصيصا

لرؤيتك؟ ألا تستشعرين شيئا بحديثي؟ فنظرت منى إلى والدتها في استنكار:

- لا يا أمي لا أشعر، أنا لا أعلم لم يريد عادل هذا رؤيتي من الأساس انتبهت منى لكلماتها وتعابير وجه والدتها ثم راحت تحدثها بصوت مرتجف:

- أخبريني أنني مخطئة وأن ما جال بخاطري الآن كذب يا أمي.

- لا يا ابنتي الأمر حقيقي، جاء ابن خالك لخطبتك للمرة الثانية.

- لا، ألم ننتهي من هذا الأمر من قبل وأخبرتك حينها أنني لن أتزوج؟! أنت وعدتني أنك لن ترغميني على شيء، تظاهرت والدة منى وكأنها لم تسمع شيئا ثم راحت تخرج ملابس منى من خزانتها

-دعك من هذا النقاش الآن وانهضي وارتدي ملابسك كما

أقول ثم سنتحدث فيما بعد.

- لن أفعل. نظرت إليها والدتها بحزن وكأنها تقل لها "ستفعلينها.

- أمي أنا لن أتزوج! جلست والدتها إلى جوار سريرها وراحت تحدثها بصوت يملأه الرجاء:

- ولكن يا منى لقد اتفقنا بالفعل على ترتيبات الزفاف وأتم والدك الاتفاق معه، هل ستكسرين اتفاق والدك وتجعلي منه

أضحوكة أمام ابن خالك ووالدته، وهل يرضيك أن تكسري بخاطري هكذا وتكوني سببا في خلاف بيني وبين ابن أخي

الوحيد؟

- أتممتم الاتفاق؟! ولكن متى حدث كل هذا ولم يمر على غياب يوسف سوى شهرين فقط؟ ومن أين لقلوبكم بكل هذه

القسوة؟!

- حدث هذا بينما أنت غارقة بحزنك لا تشعرين بالعالم حولك نحن لسنا قساة يا منى، نحن أهلك ونعلم ما يضرك وما ينفعك.
نظرت منى إليها بعينين يائستان تدركان أنه قد قضي الأمر ولن

يجدي معهم أي استجداء أو استعطاف، أجابتها في محاولة أخيرة يائسة بصوت خافت وشفتان ترتجفان:

- ولكن يا أمي هذه خيانة لي وله ولعهودنا معا، هذه خطيئة لن تغفرها الأيام لنا جميعا، هذا غدر وأنا أخشى عليكم أن تصيبكم لعنة الغدر. هبت والدة منى غاضبة وهمت بالانصراف وهي تحدثها بحدة وقد تغيرت نبرة صوتها:

- أنت فتاة صلبة الرأس، لن يجدي معك اللين، وإذا اضطررت إلى ذلك يا منى فسأزوجك رغماً عنك، افهمي! أنا لن أتركك تفعلي ما تشائين بعد الآن، ولن أتحمل نظرات الجميع وتساؤلاتهم

عن عزوفك عن الزواج إلى هذا العمر، كل زميلاتك اصبحن أمهات وأنا هنا أنتظر والعمر يمر، أقسم لك لو أن لي ابنه أو ابن غيرك ما كنت أتوسلك الآن، فلا تكوني عقاب لي ولوالدك، نحن لا نستحق منك هذا.

- أرجوك يا أمي

- بل أرجوك أنا لا تغضبي قلبي عليك يا ابنة قلبي الوحيدة. انصرفت والدتها باكية وقبل أن تغلق الباب التفتت إلى منى ثم

حادثتها بحدة:

- قضي الأمر يا منى، أنت ستتزوجين عادل ابن خالك وسريعا قبل أن تفقديني عقلي أو تفقدين أنت ذاتك في هذا البئر الذي

ألقيت بنفسك إليه. جثت منى على ركبتيها وكأن صخرة نبتت فوق كاهليها فأثقلتهما فلم تعد تستطع الصمود، ثم راحت تحدث نفسها بيأس:

- أبي لن يرضي بهذا، سأنتظر إلى أن يرحل هذا الشخص ثم سأترجاه من جديد، لربما استطعت أن أحيده عن قرارهم انتظرت منى والدها إلى أن رحل عادل وغادر والدها إلى غرفته ظلت تنتظره ليخرج فتتحدث إليه لربما استطاعت أن تؤثر عليه

- لا تقفين هكذا يا منى أرجوك

- أنا انتظر والدي يا أمي، أريد أن اسمع منه ما قلتيه لي وما ينوي فعله بي.

- بل تسجنيه بغرفته يا صغيرتي، هو يعلم أنك تقفين هنا منذ ساعة في انتظار خروجه، والدك لا يريد الخروج حتى لا تلتقي أعينكم، أرجوك لا تقتلينا أكثر، لا تصعبي علينا الأمر أكثر من هذا.

- هو هكذا إذن يا أمي لا مفر، لله الأمر من قبل ومن بعد.

الفصل الخامس

أيام قليلة وتمت خطبة منى ثم زواجها سريعا في محاولة من أهلها لدفن بقايا هذا الحب، كان عادل ابن خالها شاب قليل الحديث صلب المشاعر عملي إلى أبعد حد، دائم الانشغال حتى أنه أسند أمر اختيار زوجه إلى والدته، التي بدورها رشحت له منى فهي الفتاه المناسبة وهو لم يناقش هذا الأمر معها بل وافق مباشرة بشرط أن يتم الأمر سريعا لانشغاله بأعماله ودراساته وأبحاثه التي لا يريد لشيء أن يعطلها. كانت أيام قاتمة لا تحمل سوى الألم، لا يعزي قلب منى شيئا، من حولها كانت الزغاريد تعلو لتعلن أن بالبيت عرس ولكن صوت انكسار قلبها كان أعلى من صوت الزغاريد المشؤومة تلك، كلما نظرت إلى الأمتعة التي سيفترشون بها بيت يجمعها بزوجها لم تري سوى أشواك وجمرات، كان قلبها يدمي كلما شعرت أنهم جميعا تآمروا ضدهم، الجميع حقا لا أحد بريء كل من تعمد وكل من فعل بلا سبق إصرار أو ترصد. وفي آخر ليلة لها ببيتها ذهبت منى إلى غرفة يوسف وراحت تودع كل ما يحمل رائحته ثم دست بين طيات كتبه خطابها القصير الذي لم تنهيه ولم تجد ما يكفي من كلمات للاعتذار أو التبرير تكتبها به، تركت له خطاب الوداع هذا على أمل أن يعود يوما ويقرأه. في مساء اليوم التالي ووسط دموع اليأس وإحساس العجز تزينت منى، بدت عروس آية في الحسن، غاية في الحزن. زفت إلى عالمها الجديد وكأنها تزف

إلى قبرها ثم توشحت بلباس أبيض بدا وكأنه كفنها، لم لا فكلاهما بنفس اللون، وكلاهما انتقال إلى حياة أخرى ولكن هذه المرة هو انتقال إلى ممات ولربما أصعب من الممات، فالموت راحه بينما ما ينتظر حياتها بلا يوسف بلا أمل في عودته إليها، بلا انتظار واشتياق وحنين إليه، هو أشد قسوة من الموت، صار محرم عليها أن تنتظره، أن تشتاق إليه، أن تستدعيه بأحلامها، أن تفكر به حتى، كله أصبح حرام ولربما هو الحلال بعينه، صار ماهو حل لها هو حرام يعاقب عليه الدين والعرف وأخلاقها التي تربت عليها. لم يكن حزن منى لزواجها سوى خوفاً من لحظه أن تلتقي يوسف يوماً لا تجد كلمات تخبره بها كيف انهزمت وكيف سقطت ولم تستطع الصمود، كيف كانت أضعف من أن تحارب لأجل عهدهم معاً، كيف أنها لم تكن على قدر المسئولية، لا تدري كيف ستخبره إنها خذلته كالجميع عندما رضخت، وكيف ستبرر. وجاءت اللحظة القاتلة التي ستخرج بها منى من بيت يوسف لتزف إلى بيت آخر، كانت تنظر إلى شجرة الكافور بحزن وتشعر أنها تبادلها النظرات، وضعت منى يدها على جذع الشجرة وهمست إليها بيأس:

- أنا خذلته، لم استطع المقاومة، لقد ضعفت، لقد خسرت حربي وانهزمت فأرجوك لا تنهزمي أنت الأخرى، أنا لم أستطع الدفاع عن نفسي وعن حقي في الانتظار، فأرجوك انتظريه أنت، لا تتركي أي رياح تهزمك أو تكسرك كما فعلت بي رياح أهلي، أرجوك ظلي صامدة، سيعود، أنا واثقة، ويوم يعود لابد أن يجد أحدنا يقف في انتظاره، عندما يعود احملي له سلامي، احملي إليه أمل يداوي جرح سيظل غائراً عميق، أخبريه أنه سيحيا

بداخلي، واستجديه أن يحمل جزء مني بداخله ويبقي عليه إلى الأبد حتى وأن كان ساخطاً علي، فقط أخبريه أني حاولت. في العراق كانت تمر الأيام على يوسف ثقيلة مهمومة ولكنه يتحملها على أمل اللقاء، كان يشعر بداخله أن تلك الغربة اللعينة ماهي إلا بوابته للسعادة، لم لا وقريبا سيعود إلى وطنه، كانت هي وطنه الذي أرهقته الغربة عنه. وفي أحد الأيام علم أن أحد شباب القرية قدم إلى بغداد وبعد السلام وإلقاء التحيه سأله يوسف:

– وما أخبار القرية؟ وكيف حال أهلي؟ إلا تحمل لي خطاب منهم يطمئنوني على أحوالهم؟

– اهلك كلهم بخير يا صديقي، اطمئن! ولكن لم يبعثوا لك بخطاب ربما لانشغالهم بزفاف منى، آه يا يوسف ليتك كنت حاضرا، لقد كان زفافا لم تشهد القرية مثله من قبل. وقعت الكلمات على قلب يوسف وكأنها أسواط تجلده، فتجمدت الدماء بشرايين قلبه ثم راح يكذب ما سمع:

– من؟ منى من؟ وعن أي زفاف تتحدث؟

– منى ابنة عمك إبراهيم، لقد تزوجت عادل ابن خالها، يعمل طبيبا في المدينة أخذها معه إلى بلده، لقد كانت عروس لم ترى القرية جمالها من قبل، ولكنها كانت حزينة، أذكر أنني رأيت الدموع تسيل كحل عينيها على وجنتيها. ضاقت الأرض على يوسف حتى أصبحت لا تسع موطئ قدمه، راح قلبه ينبض سريعًا، وكأنما يرجوه أن يخرج من صدره، لم يشعر بنفسه إلا وهو يركض ويركض حتى وصل إلى غرفته ثم اغلق الباب خلفه

وسقط أرضا قلبه يبكي ولكن عيناه جافتان جاحظتان لا يقوي على الحراك، ظل على هذه الحالة طوال الليل، مشاعر متخبطة بين انهزام، وخيبة أمل، وإحساس بالغدر لا يترك بصدره مجال للتنفس

– زواج من؟ متى؟ مونيتي التي أحيا لأجلها؟ نجمتي التي قدمت إلى الغربة سنوات عمر كقربان حتى اظفر يوما بها؟ كيف لهم أن يفعلوا هذا بنا؟ إذن سفري لم يكن سوى فخ دبره لي أبي كي يقصيني عن طريقهم حتى يتموا مهمتهم بنجاح، مهمتهم التي كانت حرماني من هوائي الذي أتنفسه، وأنت يا حبيبتي كيف تحملت هذه الطعنة، تري ما حالك الآن؟ ذبحونا بلا رحمة وكأنهم تحالفوا مع الشيطان ضدنا، الآن أصبحت الغربة حقا غربة، لم أنا هنا؟ ولم لا زلت بعيدا عنك؟ كيف لي أن أواسي روحي وليس بالعالم شيء يخفف هذا الألم؟ أتذكر عيناك وتشبثها بي وأنت تتوسلين إلي، لا تسافر يا يوسف، أشعر بجحيم في صدري يكاد يقتلني، لم لم استجب لإلحاحك؟

لماذا لم أبالي لتوسلاتك؟ وكيف لهم أن يفعلوا بنا هذا، جميعهم اتفقوا علينا بالحيلة والغدر، تلك الأرض التي تحمل من تحالفوا ضدي لتحرمني حب عمري لن أطأها بقدمي مرة أخرى، لن أتقبل كل من غدر بي في حياتي ثانيا ولن أعود إليهم، ولمن سأعود؟! من اليوم أنا وحيداً لا أهل ولا وطن، وطني هو قلبي

الذي سوف أغلقه على جرحه الدامي إلى الأبد. قطع يوسف كل وسيلة اتصال بأهله تماما متعمدا، لم يعد يجب على رسائلهم، ترك تلك البلد التي يعمل بها وذهب إلى مكان لا

يعلمه أحد، قرر الانسحاب من حياتهم وكأنه لم يكن، تنازل حتى عن حقه في العتاب، وبماذا سيجدي العتاب، مرت الأيام سريعا وما أبطأها على قلب عاشق حرمته الأيام من سويداءه، مرت رتيبة ذابلة قاتمة تشبه بعضها بعضاً، يتقصى أخبار أهله في حذر كلما جاء أحدهم أو ذهب، أصبح يعلم أنها صارت أم، يعلم أيضا أنها إلى حد ما تأقلمت مع حياتها الجديدة، إلى هذا الوقت كانت قد راجت تجارته وجني الكثير من المال، بل وصنع لنفسه كيانه الخاص وسافر إلى كثير من البلدان محاولا نسيان أو تناسي جرحه النازف الذي لم يتوقف عن إيلامه يوما. يوسف الفتي الصغير ذو التسعة عشر عاما الذي قدم من قريته الصغيرة إلى الحياة في مدينة مكتظة كبغداد استطاع أن يشق طريقه وسط المستحيل، كان قد دفن نفسه بالعمل ليل نهار. النسيان، تلك الهبة الرائعة التي منّ علينا بها الله لولاها ما عشنا وما اكتملت الحياة، لم ينسَ يوسف قط جرحه بزواج منى ولم ينسَ أيضا صدمته في أهله، ومع ذلك لم يمنعه ما حدث من أن يرسل المال إلى قريته الصغيرة النائية، فبسبب يوسف صار بالقرية مستشفى ومدرسة ومكتبة، ومركز شباب ومساجد، كان يوسف معطاءا محباً للخير ، كان حلم منى أن يأتي يوما وتصير قريتهم مكاناً مثالياً لينشأ به أولادهم، ها أنا أحقق حلمك يا منى كما وعدتك ولو لم تكوني معي، حتى وإن صرتِ زوجة لأحدهم فأحلامنا هي حكر علينا وحدنا، لم ولن يسلبها أحد مني أبدا، فأنت تسكنين روحي توجهيني وترشديني ماذا أفعل، أنا على العهد يا منيتي. كان يوسف ينتظر كل شاب قادم من قريته للعمل بالعراق فيستقبله ويرحب به ويقدم له يد العون حتى صار رمز وقدوة لكل شباب قريته، وذات صباح وأثناء

مباشرته لأعماله جاءه خبر أنه قد قدم أحد شباب القرية إلى العراق للعمل، كان قد مر وقت طويل جداً ربما سنوات منذ آخر مرة سمع خبر عن قطعة من قلبه تركها خلفه إلا وهي بلده، وكالعادة هرول إليه ليستنشق رائحة تراب مصر التي لا تزال عالقة في كل ما يحمله هذا الشاب، صافحه يوسف بمنتهي الحفاوة والترحاب.

- حدثني عن أحوال القرية، كيف أحوال أهلي؟ نظر إليه الشاب بحزن شديد وتوقفت الكلمات بحلقه، فهم يوسف أنه حدث مكروه لأحدهم:

- ماذا بك يا أخي هل أصابهم شر لا قدر الله؟، بالله عليك لا

تطل علي ولا تختبر صبري، أجبني ماذا حدث.

- أصابهم يا يوسف، ولكن أنا آسف أنه أنا من يبلغك هذا

الخبر الحزين، لقد انقلبت حياة بيتكم الهادئ يا يوسف.

نظر إليه يوسف في ذهول:

- أبي أم أمي؟

أشاح الشاب بنظره بعيداً عن عينا يوسف الدامعتين اللواتي

تستجديانه ألا ينطق بما يكسره، لطالما تمكن من يوسف خوف أن يفقد أحدهم وهو في غربته هذه، لطالما سيطرت عليه

مشاعر السخط على ما فعل به أهله، ولكن كان أيضا يدعو

الله دائما ألا يغضب عليه والداه جراء مقاطعته لرسائلهم وعدم الرد عليها، كان دائما داخله هذا الهاجس أن يموت أحد والديه وهو غاضب عليه أو أن يفارقاه قبل أن يرتمي بين يديهم ويطلب الصفح والمغفرة. هكذا هي لعبة الأيام، لا قواعد لها، تباغتنا في طرفة عين لتهدم كل ما شيدنا بلا سابق إنذار ولا فرص للعودة كي نصحح ما أحدثنا من فوضى، تضرب بقوة لتجعلنا نرى الأمور عن قرب فينكشف لنا أننا لم نكن ننظر جيداً من قبل وأن ما أصابنا كان فقط يقين كاذب وأننا الآن لم نعد نستطيع تدارك أخطاءنا إلى الأبد، أيا صديقي أن تكن الأيام حليمة معنا فهذا ليس بالضرورة بصالحنا، أحيانا يكن حلمها هو مجرد سُم في ترياق، إياك وأن تتجرعه، إياك وأن تغتر يوماً بما يمهلك الزمان من وقت.

الفصل السادس

- انطق أرجوك ماذا حدث؟

- ماتت منى ابنة عمك في حادث أليم، كانا يستقلان سيارتهم

عائدين من زفاف أحدهم هي وزوجها فاصطدمت السيارة بأخري. عمك وزوجة عمك أيضاً لم يحتملا هذا الألم ماتا حزناً وقهراً لفراقها. بدت اللحظة وكأن الأرض توقفت عن الدوران

- منى ماتت؟! الآن؟! دون أن أراها أو أسمع صوتها؟! يا الله هل كان كثيرا على أن أراها ولو لمرة واحدة، ألهذا الحد أصبحت

الحياة قاسية غير عادلة؟! أخذها أهلي مني مرة وأخذها الموت مني للمرة الثانية، هل ماتت حقا وهل صارت بعالم آخر؟! هرول مسرعا إلى غرفته وأخرج ورقات كانت قد كتبتها له قبل

سفره، كان قد حرمها علِى نفسه مذ علم بزواجها، حتى صورها كان لا ينظر إليها قائلاً هي زوجة أحدهم لم أنظر إليها

- الآن أنت في ذمة الله يا منى.. أخذ يقرأ كلماتها بلا دموع، وما أن انتهى منها حتى ثار وراح يهشم كل ما تقع عليه عيناه، راح يصرخ وكأنه بعالم لا يوجد به أحد سواه

- آه بقلبي جحيم يا ربي ساعدني، هل ستهدأ هذه النيران يوما؟

هل سأعيش لتبزغ شمس أخرى لن تراك؟ وهل سأستطيع العيش

على أرض لست على وجهها؟ يا رب كيف يحدث هذا وأين العدل؟ أين الحكمة من كل هذا؟ راح تارة يصرخ وتارة يهشم في أغراضه المبعثرة غرضا تلو الآخر إلى أن انتبه أنه هناك دم بكل مكان، لقد جرح يده بقوه ولم يشعر فاجتذب وشاح كان معلقا بأحد الأركان ولف به الجرح بقوة ثم ارتمي أرضاً كطفل فقد والدته للتو شاحبا تائها ممزقا وأخذ يتنفس ببطء وبصعوبة بالغة. رويداً رويداً هدأت نبضاته ثم رفع رأسه وقال:

– إنا لله وإنا إليه راجعون، اليوم تأكد أني لم أكن مخطئا عندما قررت اعتزالهم، كنت انتظر يوما أعود به إلى قريتي بعد أن تلتئم جروحي وأصافحك كأخ وأخته وأتمنى لك السعادة، ولكن الآن لمن سأعود؟ لأزور حجارة خرساء تحتوي جسدك الطاهر، لمنعني أن أراك، لن أسمع صوتك مره أخرى، لن أستطيع رؤياك بعيني، إذن وما الحاجة إلى عيناي وما الحاجة إلى الحياه كلها مرت أيام وشهور وأعوام يتخبط بلا طعام إلا ما يبقيه حياً، ولا نوم إلا أن يغشي عليه بعد نوبات بكاء مضنية، بلا حياة صار الهواء يخنق رئتيه ويحرقها وكأنه سام، ضاقت عليه دناه

– وأين دناي من بعدك يا منيتي الوحيدة؟ وما فائدة عمري الآن؟ رباه أتوسلك امنحني الصبر والقوه لأتحمل كل هذا الألم، ليتحمل قلبي هذه الفاجعة. لم يكن أحد مكانه ليستطيع أن يتعامل مع موقف كهذا بثبات، كبرا سويا ولعبا سويا وتواعدا على تحقيق أحلامهم معا، كل منهم ترك جزء منه بروح الآخر والآن مات جزء من روحه كان الأحب إلى نفسه، لقد أحب

يوسف ما غرسته به منى، هي من علمته أول كل شيء في الحياة، وما ينسيه خطواتهما معا في طريق طويل طالما قطعاه سنوات ذهابا وإيابا، مرة ركض وأخرى هرولة وكثيرا كثيرا كانا يمشيان ببطء ليصبح الطريق أطول فيسرقان من الزمن وقت أكبر. منى هي شعلة النور التي تفتحت عينا يوسف للمرة الأولى على

بريقها، كيف له الآن أن يصدق إنها صدقاً انطفأت، صارت عالم آخر،صارت في طي الماضي والنسيان، وماهي إلا سنوات وستصبح ماض وحتى إن كان ماض عزيز يحمله الجميع

بقلبه ولكنه يبقي ماضي وذكرى. مرت الأيام بيوسف كلها متشابهة، مثقلة، كئيبة، مظلمة، ينهض كل صباح من نومه الذي لم يعد يهنأ به ويذهب إلى عمله محطما، مقهورا، يشعر بأنه لاشيء، هو فقط بقايا إنسان، جسد بلا روح، حتى وبعد مرور ثمانية عشر عاما لا زال على حاله القديمة، زلزال لا يتوقف أبدا عن انتزاع قلبه من داخله وفاجعه لا يهدأ أجيجها أبدا، صارت شمس أيامه كالثلج، باردة مثقلة كهلة لا تقوي على السطوع، كلما مرت أيامه كلما انسحبت منه روحه وانطفأت شيئا فشيئا، وكلما تباعدت السنوات صار حبه الأول والأبدي صريع الماضي، هي الآن ذكرى فقط يحملها بين طيات نفسه المغدورة ببطء، تجلده الأيام وتصرعه اللحظات ولا يمهله أحدهم فرصة أن يتنفس، لم يجتهد يوسف في البحث عن مخرج من أحزانه وكأنه رضي بسجنه الدائم الذي شيده بداخله، وبينما هو غارق في حزن فقدان الحبيبة والوطن وإحساس الغدر والعجز، وإذا بالزمان يلعب لعبته المعتادة، فكما قالوا قديماً المصائب لا تأتي فراداً وكأن الأيام لا ترى بموت منى وغربة يوسف والشيب الذي

ظهـر بشـعره علـى غيـر أوأنـه مـا يكفـي مـن الأحـزان بـل صـارت المصائـب تتكالـب عليـه فـلا تتـرك لـه فرصـة أن يلتقـط أنفاسـه بـلا

حزن ولو مرة، في فجر العشرين من مارس ٢٠٠٣ كانت القشة

التي قسـمت ظهـر بعيـرا لـم يعـد يقـوي علـى الحـراك، سـمع جميـع من ببغداد دوي انفجارات كادت تصم آذانهم، كانت غـارة جوية

شـنتها الولايـات المتحـدة علـى العـراق لـم تكـن سـوى أول الغيـث، فمـا لبثـت أن شـنت قـوات التحالـف عمليـة توغـل بمدينـة البصـرة القريبـة مـن الحـدود العراقيـة الكويتيـة، بينمـا كانـت القـوات الخاصـة

تشـن هجومـا برمائيـا مـن الخليـج لتأميـن البصـرة والمناطـق المحيطـة بهـا وحقـول البتـرول صيدهـم الثميـن الـذي تكالبـوا عليـه لينتزعـوه مـن فـم مالكيـه كعادتهـم، لطالمـا تكالبـوا علـى الأمـم طمعـا وكرهـا دون أن يبالـوا لمـا ينهبـوا، لـم يكـن نهـب البتـرول فقـط مـا أضـر العـراق فبيـن عشـية وضحاهـا صـارت الأمهـات ثكلـي وصـارت الزوجـات أرامـل، صـار بـكل بيـت فقيـد فأصبحـت العـراق نفسـها فقيـدة، كانـت يـد الغـدر تطـال الجميـع بـلا تمييـز، كان يوسـف يشـاهد مـا يحـدث بقلـب دامـي وعيـون لا ترجـو مـن الحيـاة نجـاة، فبينمـا هـو غـارق بحزنـه علـى فقدانـه منـى وفقدانـه الأمـل فـي العـودة إلـى وطنـه خشـية أن يلتقـي والديـه، وبينمـا كان يـرى مـن بغـداد وطنـه البديـل الـذي ارتمـي بيـن ذراعيـه، إذا بصاعقـة الحـرب تضربـه لتحـرك الملـح الراكـد فـي قـاع كـوب المـاس لتسـكبه مـن جديـد داخـل جرحـه الـذي لا زال يدمـي، اتحـدت الأحـزان عليـه فصـار مشـتتا بيـن حـزن علـى وطـن قديـم ووطـن جديـد ووطـن صـار تحـت الثـرى، لـم تكـن المـرة الأولـى التـي شـهد بهـا حـرب بالعـراق ولكنهـا كانـت

الأصعب والأخطر فتكالب الأحزان على روحه مرة تلو الأخرى وشعوره بأنه صار وحيدا بالحياة جعلا روحه كعود يابس كهشيم تذروه الرياح، راح يبكي على أرض قضى بها من العمر ما جعلها تستحق أن يدعوها وطنه بحق وأناس لم ير منهم سوى الخير

والشهامة والمروءة، عاش يوسف مثله مثل كل مصري في العراق

يشعر وكأنها بلده الثاني، يلقى معاملة من أهلها وكأنه من دمائهم، لا وجود لحواجز الجنسيات، ولكن بين كل هذا كان

من حين إلى آخر يراوده شعور غريب نحو وطنه الأم الذي استفاق يوماً ليجد نفسه في قمة اشتياق إليه وصار كل ما يرجوه

فرصه أخيرة، لحظات ينظر بها إلى عينا والديه ويطلب منهم العفو والمغفرة، عشرين يوما من الرعب والهلع وبغداد تدك دكاً،

قصف لا يعرف ليلا من نهار، يُذكر أنه من شدة دوي الانفجارات

كانت كل النوافذ محطمة كما قلوب العراقيين، بغداد العامرة ترتعد خوفاً وأهلها مشتتون تملك منهم الرعب والدمار، كان

يوسف ينتظر في مخبأه كل ليلة أن يبزغ فجر يوم آخر وهو لا زال حيا، يائسا حزينا بل مقهورا على ما تراه عيناه من قتل

واغتصاب ووحشيه يعامل بها العراقيون، كان يقضي الليل في الصلاة والدعاء

- يا رب هذا البلد كان آمنا اللهم عليك بمن عكر هذا الآمن، يا رب أتمني أن أدفن بتراب بلدي، رب استجب لي يا قدير.

كانت أحياء بغداد السكنية تضج بمضادات الطائرات مما زاد خطر استهداف هذه الأسلحة من قبل قوات التحالف، ويا لها

من كارثة إذا حدث هذا وسط الأحياء السكنية التي كانت تضج

بالخوف، لو أن الحجر نطق لصرخ من شدة الفزع الذي ينبض بداخل كل بيت، ومع كل هذا قاتل أهل بغداد بشدة، تارة بالكر

والفر وتارة أخرى بالعمليات الاستشهادية، حتى أن السيدات أيضا كان لهن دور في الاستشهاد دفاعا عنها ثم ماذا؟

في مشهد هو الأسوأ في التاريخ، سقطت بغداد وسقط معها كل شيء وسلبت بغداد من أهلها ومنا جميعا، نُهبت الخيرات والأرواح، ولكن السرقة الأصعب والأخطر والأدميّ للقلوب لم

تكن سرقة أرواح ولا بترول ولا حتى أسلحة، لقد كانت سرقة تاريخ بلد وحضارة دامت آلاف السنين، العراق بلاد الرافدين، مهد الحضارات الإنسانية المبكرة، يذكر أن المروحيات هبطت على مدينة بابل الأثرية ليتم اغتصاب الأرض وانتزاع عباءتها حرفيا، فقد قاموا بإزالة طبقات من التربة الأثرية في الموقع، كما تم نهب المتحف الوطني العراقي، ولعلها كانت الطامة الكبرى، ١٧٠ ألف قطعة أثرية تم سلبها ونهبها والغريب بالأمر أنه كانت بعض القطع بالضخامة التي لا تسمح لأفراد بحملها ولعل هذا ما جعل الشكوك تدور برأس الجميع، لربما كانت عملية اغتصاب جماعية مدبرة، لم يكن مقصودا منها فقط الهيمنة على النفط، كان سلب لكل ماهو نفيس وغالي، هي بداية اللعنة، ولم لا؟ أليس هذا هو حلمهم؟ (من النيل إلى الفرات) أصبحت العراق

الهادئـة بحـورا للدمـاء، زهقـت أرواح الأطفـال والنسـاء والرجـال بـلا تفريـق، عـدو غاشـم احتلهـا وعكـر سـكينتها وصفوهـا وقـذف بهـا الرعـب بـلا رحمـة ولا شـفقة وماذا الآن يا يوسـف؟

تجارتـك هلكـت كمـا حـدث مـع الجميـع، عراقييـن وعـرب مـن كل الجنسـيات، بـارت تجارتهـم وانقلبـت موازيـن حياتهـم، صـارت أرض الأمـن والأمـان لا تعـرف معنـي لأمـان وبينمـا كان ينعـي أيامـه الزائلـة، وبينمـا كان غارقـا فـي الحـزن إذا برفيـق لـه يدخـل البيـت مهـرولا ينهـج وكأنـه يعـدو منـذ سـنوات، ارتمي على أقـرب كرسي وراح يتنفـس بسـرعة وصعوبـة، ثـم أشـار إلـى يوسـف أن يعطيـه بعض المـاء، انتفـض يوسـف وأعطـاه المـاء ثـم سـأله مـا بـه، تبـادر إلـى ذهـن يوسـف المشـهد الأسـوأ الـذي اعتـادا عليه طوال الأيـام الماضيـة إلا وهـو خبـر وفـاة أحـد رفقائهـم حتـى أنـه لـم يبـق منهـم الكثير على قيـد الحيـاة

– انطق يا كرم! ماذا حدث؟ وما الذي جعل لونك شاحباً إلى هذه الدرجة؟

– انتظر يا يوسف قليلا ألتقط أنفاسي

– أرجوك لم أعد أحتمل صدمات

– اسمع لقد وجدنا طريقة كي نعود بها إلى مصر

فجثا يوسف على ركبتيه أمامه وعيناه معلقتان بوجه كرم

– ماذا قلت، سأعود إلى مصر، كيف؟

- أولا سنترك كل ما لدينا هنا ولن نحمل معنا إلا القليل من متعلقاتنا الشخصية، ثم سنخرج من العراق عن طريق الخط البري الدولي بين بغداد وعمان، لكن لا أخفيك سراً هي مخاطرة قد ننجو منها وقد لا ننجو وينتهي بنا المطاف نعوشا طائرة.

تنهد يوسف بحرقه وهو يردد:

- نحن ميتون لا محالة ولكن لعله أمل ويستحق المجازفة لأجله

الفصل السابع

على مشارف بغداد ألقى يوسف بالنظرة الأخيرة على حبيبته التي وجد بها عوضاً عن كل شيء، بغداد، حضنه الدافئ الذي احتواه لحظة عطشه إلى حضن يبكي به، عاش بها أيام لا تنسي، والآن لا يرى منها سوى ألسنة دخان متصاعدة من كل شيء، راح ينظر من حوله، تلك كانت قذيفة أشعلت هذا البيت منذ عدة أيام ولكن لا يزال الدخان يتصاعد منه يأبى أن يخمد، يأبى أن يصمت، كأنه أنفاس أخيرة لتلك الأرض وكأنه يديها الممتدة إلى السماء مستغيثه مستجديه ربها أن ينزل عليها رحماته.

كان يوسف يستقل شاحنه مع أكثر من عشرين مصرياً آخرون فروا من جحيم هطل عليهم بلا إنذار ليحطم كل ما بنوه في سنوات وليسلب منهم ما ادخروه بعرق وكد وحرمان، كانت تلك الحرب كلعنة أقسمت أن تسلب الجميع ما يتمني. مر الوقت وكأنه لا يمر والشاحنة تمشي ببطء متجهةً نحو الحدود الأردنية وصولا إلى العقبة ومنها إلى ما لا يعلمه إلا الله إما حضن الوطن أو غياهب المجهول والاختفاءات غير المبررة والمتكررة والتي باتت شيء لا يستحق تحريك ساكن، بدا الطريق طويلا جدا وكأنه لن ينتهي أبدا ولربما تقصدها القدر أن يمهل يوسف قليلا من الوقت ليستجمع شتات أمره ويرتب ما بعثرته الأيام

فيحـدد بدقه مـاذا يبغي ومـاذا ينتظر راح يوسف يفكر شاردا:

- لـم يعـد يهمنـي مالـي الـذي ابتلعتـه الرمـال ولا تجارتـي التـي راحـت هشـيما تـذروه الريـاح كتلـك البلـد الخالـدة رغـم أنـف مـن

أو أبي لـم تعـد تعنيني سـنوات عمري التي ضاعـت فقـد كان كل هـذا بحـر إرادتـي، مـا يعنينـي الآن هـو عودتـي بعـد ثمانيـة عشـر عاما مرت وأنـا أتعذب مـن الغربة والفقـد، ثمانية عشر عاما وأنـا أتمنـى المـوت كل يـوم بـل كل دقيقـة، هـل حقـا مـرت كل تلـك الأيام بكل ما تحمله من عذاب، طالما كان اشتياقي إلى تراب وطني يصارعني وأصارعه، تارة يغلبني وكثيراً غلبني، مرت بكل ما تحمله من نجاحات حققتها وحيدا، تلونت بكل ألوان الحسرة والأسى، واليوم أنا في طريقي إلى تلك القرية، أعلم أنني سأعود خالـي الوفـاض ولكـن يكفـي أنـي سأعود. كانت حرب العراق وجثث الشـهداء وصرخات الأمهـات الثكلى حزنـا ونواحـاً لمـوت أبنائهـم ودمـوع الآبـاء بمثابـة ناقـوس خطـر أيقـظ جـزء كان قـد ذبل بداخله فجعله ينتبه أنه ترك الكثير من الأمور التـي كانـت تستحق أن يعيشـها، أصبـح مـدركا أنـه مهمـا سافر ومهمـا ابتعد ومهما ظن أنه صنع لنفسه وطن، فإنه لا وطن إلا وطنه بكل ما بـه مـن عيـوب ومميزات، يبقـي الوطـن وطـن ويبقي لتراب الوطن عبقـاً لا يضاهيه شيء.

- تأخر الأمر كثيرا ولكـن لا بـأس، أحمـد الله أنـه لا زالـت لـدي الفرصـة لأقبّـل يـدي أمـي وأبـي، اعتقـد أنـه حـان الوقـت لأعترف

لهم كم تعذبت في اغترابي عنهم، أن أعاتبهم أو أجادلهم ولربما

ستنشب بيننا بعض المشاحنات ولكن في النهاية وبكل حب سأرتمي بين ذراعين أعلم جيدا أنهم لن ينافقونِ في حبهم لي وخوفهم علي، أعلم أني سأعود لأجد شوارع بلدتي ليست هي

الشوارع، وهواءها لم يعد هو نفس الهواء، بل وكلها لم تعد قريتي التي نشأت بها وعاشت بداخلي، أعي تماما أنني سأعود إلى أرض لم أطأها من قبل وإلى وجوه لم أرها من قبل، مات

من مات وولد من ولد ومرت الأعوام وأنا هنا أقف على حافة الألم بلا أمل، هي مشكلة كل عائد بعد غياب، آن الأوان أن

أضع حدا لكل هذا العراك والتخبط والتيه. وبعد وقت ليس بقليل وصلوا إلى الأردن، كانت الخطوة التالية هي الأصعب، لابد وأن يبلغ والديه بقدومه، ابتلع يوسف لعابه بصعوبة ثم راح يجفف عرقه، هي حقا لحظة توقف بها الزمن إذ يخرج قصاصه بها رقم هاتف بيت والده، كانا قد بعثا به إليه في إحدى رسائلهم التي لم يتوقفان أبدا عن إرسالها على أمل أن يرق قلبه لهم ويُسمعهم صوته أو يجيب على رسائلهم المتواصلة برسالة تثلج قلوبهم المتألمة، لم تنجح من قبل توسلات والديه في إقناعه بالغفران والصفح على ما بدر منهم، بل وزاد الأمر سوءا موت منى. والديه اللذان تجرعا الألم والحزن والأسى في كل دقيقة غابها طفلهم عنهم، مرات حزنا لفراقه ومرات شعور الذنب الذي يقتلهم خاصة ومع تعرضهم لشائعات مقتل ابنهم أكثر من مرة، مرة يخبرهم أحد العائدين بأن المسكن الذي كان يستأجره يوسف تهدم فوق كل من كان به ومرة أخرى يقال أن يوسف مفقود ولا

يعرف أحد مكان له. وتمر الأيام والليالي في بكاء ونحيب

غير مجدي نعيا لروح غدرها أقرب الناس إليها، ثم من بعدها بأيام وأحيانا شهور من الألم القاتل يطمئنهم أحد العائدين أن يوسف لا زال بخير. هكذا مرارا وتكرارا وكأن القدر يجلدهم بسوط من مرارة الأيام فيذيقهم مما يتجرعه ابنهم الوحيد كل يوم في غربته وكأنهم جميعا معاقبون. كان أحمد يبكي ليلا نهارا لا يفارقه الدعاء أن يرد الله له يوسف وأن يغفر له خطيئته بحقه، لطالما شعر يوسف بالأسى بكل مرة قرأ خطاب لوالده يتوسله أن يعود، أو سمع تسجلا لوالدته تبكي بحرقة وتتوسل إليه أن تجعله يسمع صوتها مرة واحده قبل أن تفارق الحياة، حقا حزنه كان كبير وشعوره بالغدر أكبر ولكن لطالما نازعته نفسه بالعودة إليهم ولكن لم يكن يعرف طريق العودة وكأنه فقد ذاكرته وذكراه وضل طريقه إلى عالمه الذي رفضه بعد أن طُرد منه ليعيش حياة المنبوذ الذي تخلي عنه كل عزيز وقريب. راح يحدث نفسه في حزن ويأس وربما قليل من الندم:

- أكان لابد من شن حرب يا يوسف حتى تتنازل عن غرورك لتعترف بأنك لم تنس شيء، أشجارك التي تنتظر عودتك لتزهر أركان بيتك القديم الذي جمعك يوماً مع حب عمرك منى، رحمة الله عليك يا منى، لا أعلم كيف سأري البلدة بدونك، ولا أعلم

كيف سأتنفس هواءها البارد. أعطى يوسف القصاصة لعامل الاتصالات:

- أريد الاتصال بهذا الرقم لو سمحت. وما هي سوى دقائق حتى كان الاتصال جاهزا، مشى يوسف نحو سماعة الهاتف وكأنه سيلقى حتفه أو كأنه ذاهب إلى حافة بركان سيخطفه إلى جوفه:

– ألو، من المتصل؟ جاء صوت أبيه كرصاصة صريحة خرجت من فوهة سلاح محددةً اتجاهها بكل دقة حيث سكنت بأعماق قلبه المفطور، عاد يوسف لتجفيف عرقه مره أخرى ثم تحامل على نفسه وبصعوبة بالغة نطقها:

– ألو، أبي أنا يوسف، أنا عائد إلى أرض الوطن في خلال الأيام القادمة. قالها يوسف في لحظة كانت الأصعب على قلبه، للمرة الأولى بعد ثمانية عشر عاما يسمع صوت والده

– يوسف هل هذا أنت يا بني، اشتقت إليك يا فلذه كبدي

– أنا أيضا يا أبي اشتقت لكل شيء

– انتظر قليلا سأنادي والدتك لتحدثها، يا أم يوسف يا أم يوسف تعالي بسرعة يوسف على الهاتف الآن وأخيرا هو عائد

إلينا. سقط الوعاء من يد عائشة وهي جاحظة العينان تتكلم بصوت يضج توسل ورجاء:

– يوسف ابني، هل هذا أنت حقا يا صغيري؟

– نعم يا أمي، أنا عائد إليك فانتظريني

كانت كلمات قليلة ثم انقطع الاتصال من بعدها، كلمات أقل من أن تروي ظمأ سنوات من الجفاف والأسى ولكنها تكفي أن

تنبت الأمل من جديد فتغير ملامح وجه الأيام القبيح وأخيرا، أحيانا لا يحتاج الأمر إلى الكثير وأحيانا قليل من الشيء يكفي،

فعندما تمتلك أصيص زرع في شرفتك المنزلية به نبتة واحدة تسقيها كل يوم تحفظ عدد أوراقها وتفرح كلما أنبتت ورقة جديدة أو تفتحت بها زهرة فيتعلق قلبك بها، فتصير تسأل

نفسك كلما مررت بمتجر بيع الورود كيف استطاع بائع الورد أن يقطفه وأنا أخاف أن ألمس أوراق نبتتي الصغيرة؟ عندما يكن ما

تمتلك قليلا تري الأشياء أغلى وأهم وأقرب إلى نفسك حينها فقط ستعلم معنى أنه أحيانا القليل يكفي ويغني وكلما قل كلما

زادت قيمته. خرج يوسف مسرعاً هائماً وهو لا زال لا يصدق أنه حقا سيعود إلى وطنه، راح يسأل نفسه ما إذا كان ما فعله هو الصواب، كان حائرا بين شعور الحنين وصوت والداه الذي أحياه مرة أخرى وشعور الرهبة من عودته لأرض وكأنه يزورها للمرة الأولى، غريب جريح لا زال ينزف، على الجانب الآخر كانت هذه المكالمة الهاتفية بمثابة إكسير أعاد الحياه لقلب بيت بأكمله كان قد مل الحياة وزهدها ولم يعد يبالي. سجد والد يوسف على الأرض سجدة شكر لله، كانت والدة يوسف لا زالت لا تعي ما يحدث، ولطالما حدثها قلبها عن هذا اليوم ولكن من شدة فقدانها لهذا الأمل ومن كثرة خيباتها في تحقيقه كانت لا تزال تصارع السعادة، تشعر وكأن الوقت لن يمر وكأنه سيحدث شيئا يجعل سعادتها تلك لن تكتمل، سعيدة لعودة ابنها الغائب حزينة مهمومة تخجل أن تضع عيناها بعينيه بعد كل ما بدر منهم:

- كيف سأدافع عن نفسي أمامك يا صغيري وكيف سأحتمل

أن أرى بوجهك ما فعله الزمن وما فعلناه بك. انخرط أحمد في نوبة بكاء شديدة:

– اللهم لك الحمد يا رب، وأخيرا ستكتب لي رؤياه قبل أن أموت، كنت أعلم يا الله أنك يوما ما ستستجيب دعائي وإلحاحي أن أراه ثانيا وأضمه بيداي إلى قلبي ولو مرة واحدة قبل أن أوارى الثري. راحت الساعات تمر في الانتظار وكأنه قرون، راح البيت يتزين استعدادا لاستقباله، والدة يوسف ترتب ماذا ستعد له من ألوان الطعام التي كان يفضلها ثم راحت تسأل نفسها:

– يا ترى يا ولدي ماذا سلبت منك الغربة، وهل ما زلت تحب نفس الأشياء أم استسغت طعم المرار الذي سقيناه لك عنوة. لعل الخطوة الأصعب كانت فتح غرفته بعد كل هذه الأعوام، نعم، ظلت غرفة يوسف مغلقة ثمانية عشر عاما، أبت بهم والدة

يوسف أن يدخل أحدهم إليها سوى منى رحمة الله عليها، لا زالت على حالها القديمة، وعلى طاولة الغداء دار حديثا قصيرا

بين أحمد وعائشة:

– ما رأيك يا أم يوسف أن نبدل تلك الغرفة بأخرى فنضيف لها

بعض الأثاث الحديث والإضاءة المبهجة؟ قالها والد يوسف وهو يحمل في نفسه شيء يعلمه الله، تركت أم يوسف الملعقة من يدها ونظرت إليه بحزن ثم أجابته:

– لا يا أبا يوسف إلا هذه، لطالما حافظت له على غرفته في

هيئتها الأولى، لطالما أبقيت له هذا الجزء من ذكراه القديمة، أشعر بأن طفلي سيعود ليبحث عن بقاياه القديمة، أشعر أن روحه لا زالت معلقة بأشيائه، أشعر بأنه سيعود ليبدأ من حيث توقف، وأنه سيعود ليري عالم آخر غير الذي تركه من خلفه عنوة ككل مغترب يعود إلى وطنه بعد أعوم من الغياب، سيعود ليجد الشوارع غير الشوارع والأرض غير الأرض فيصدم بواقع أنه انتقل من غربة إلى غربة أخرى، سيبحث عن سنوات تركته وغادرته وأخذت معها كل ما عاش قديما، ابني سيعود ليبحث عن نفسه القديمة التي اشتاق إليها فلا تحرمه منها مرة أخرى، لا تفعلها

أرجوك، اترك لولدي آخر ما تبقي له من روحه المغدورة. فتنهد أحمد بخزي شديد ثم هم بالنهوض وهو لا يجد كلمات يرد عليها بها سوى الصمت الذي طالما جلده، كان الصمت هو صديق أحمد الصدوق كلما تحدثت والدة يوسف وكلما تطرق أحمد إلى الحديث عنه، كثيرا ما أنب نفسه، كثيرا ما ندم على ما بدر منه ولكن الآن لا جدوي من الندم.

الفصل الثامن

مرت الأيام بطيئة مثقلة حتى أتى اليوم المنتظر، لم ينم أحد من أهل البيت، بل لم ينام، أحد في القرية كلها، وعلى بعد

أمتار من المنزل القديم، توقفت السيارة التي تحمل يوسف، كان الجميع في حالة تأهب وترقب واستعداد، اجتمعت البلدة عن بكرة أبيها لتراقب هذا المشهد المهيب، وليشاهد الجميع هذا الغائب الحزين الذي لم يتوقع أحد عودته، الحاضر بأعماله وخيره الذي غمر كل أبناء القرية، خرج يوسف من السيارة ينظر ناحية بيته القديم.

– هو نفس البيت عدا بعض التعديلات، وهذه هي شجرة الكافور العتيقة خاصتي، رباه لقد سقطت جميع أوراقها وفروعها

ولم يتبق منها سوى فقط جزع خاوي من أي حياة يقف وحيدا

حزينا وكأنه يحارب الزمان ليظل واقفا، وكأنه يقف هناك لغرض ما، وهذه هي أمي وهذا أبي، يا الله! مجرد لحظات تعيدني ثمانية عشر عاما إلى الخلف، كأنني لم أبتعد ولم أغب يوما وكأنني كنت ألعب الأمس هنا وأستظل بظل تلك الشجرة. قفزت أمه إلى صدره باكية نظر يوسف بوجهها البشوش الحنون الذي لم يتركه الزمن كما كان، إذ ترك عليه كثبانه وحفرها بقوة، راح يحدث نفسه:

– صارت أمي أنحف قليلا ولم يخلو وجهك يا أمي من بعض التجاعيد، وما هذه أيضا؟ هي خصلات من الشعر الأبيض

تنسدل من تحت غطاء رأسها على جانب أذنيها في استحياء، أصابك الزمان بالشيب يا أمي ثم أغمض عيناه واستسلم في ضعف لحضنها الحاني وكأنما يلقي بها ما بقلبه من ألم ووحده.

– نعم يا أمي احتضنيني كثيرا، اشفي قلبي المرهق الجريح وأنا لن أخجل من البكاء، هل هذا أبي، يا لهذا الزمن وغدره لقد تغير أبي كثيرا، تحول شعره إلى اللون الأبيض تماما وصار يتكئ على عصا لا تقوى على حمله، يمشي نحوي بخطوات بطيئة مثقلة وظهر منحنى قليلا وعينان تضجان بالحزن والأسى. احتضنه والده بشده باكيا وكأنه يمسك بطوق النجاة، بادله يوسف البكاء، بكت القرية كلها من هول المنظر، ثم سجد يوسف على الأرض يقبل ترابها الذي اشتاق لأريجه الذي لم يتغير بتغير الزمن، فتراب الوطن له رائحة لا يعلمها سوى من فارقه فقط، ثم نهض يوسف وجفف عبراته الخائنة التي انهمرت على غفلة منه دون أن تخبره لتفضح أمره وتكشف الستار عن قلبه المتسامح رغم كل هذا الأسى. وما أن نظر نحو المنزل ثانيا حتى رآها تقف هناك مستندة إلى جزع شجرة الكافور الحزين، ترتدي فستان وردي رقيق غاية في الروعة هي من تزيده جمالاً، فتاه جميلة، ناعمه الملامح، تشع عيناها حياه، تتطاير خصلات شعرها الصفراء المتلألئة مع ضوء الشمس وكأنها هي من تشرق لا الشمس، تمتلك عينان زرقاوات وكأنهما نجمتان تسبحان في فلك، سبحان من أحسن صنع هذا الجمال، لوهلة شعر وكأن منى هي من تقف هناك في نفس الموضع الذي تركها به يوم أن

رحل تنظر إليه لتستقبله من جديد، كانت تراقب الموقف بشغف محدثة نفسها:

- هذا هو يوسف إذن، هذا هو الفارس الذي طالما رسمت ملامحه في خيالي وحلمت أن ألقاه، هذا هو الرجل الذي طالما

تحدثت القرية عن شهامته ونبله في معاملة كل شاب سافر إلى العراق فاستقبله وساعده ووقف إلى جواره فصار بهذا أيقونة وقدوة للجميع، هذا هو الرجل الذي بعث بأمواله لبناء مستشفى

ومدرسة ومسجد حتى غير ملامح القرية ومستقبلها للابد إلى الأفضل، هذا هو الرجل الذي هجر كل ما تربي عليه من أجل

حب بلا أمل، بلا مبالغة هو حقا تماما كما رأيته بأحلامي، تماما كما رسمته بخيالي، شاب في أواخر الثلاثينيات، قوي البنية وسيم ذو جاذبية تدفع أي عقل إلى الجنون، لا يخلو شعره

من بعض الشيب الذي زاده جاذبية وفتنة، تشع عيناه الحزينة بالحكمة والرزانة، هو تماما كما حلمت وكما رسمت، بل وكما

تمنيت، تبقى فقط أن يصافحني لأتأكد أنه حقا موجود وليس من نسج خيالي ككل مره غفوت واستيقظت لأجد نفسي أحلم.

اقترب يوسف منها وهو لا زال يحاول استيعاب لم اجتذبته هذه الفتاة، وهل أصابته الهلاوس أم هو وقع الصدمة وعودته إلى واقع

لا يستطيع تغييره، اقترب منها فإذا بها لا زالت تقف هناك تنظر

إليه مبتسمة هادئه تأسر الروح، فالتفت إلى والدته متسائلا:

- من الفتاة يا أمي؟

- هي أمل ابنة أختك منى رحمها الله،

فانتفض كل جسده واتسعت عيناه دهشة، تمالك نفسه بمشقة لئلا يخيفها وكأنها فراشة وقفت على يديه يخاف أن يتحرك فتهرب بعيدا، ثم التفت إليها

- أنت أمل إذن؟ مرحبا يا جميلة.

ثم مد يده إليها مصافحا، فمدت يدها وهي تحدث نفسها:

- أخيرا أنا ألمسه هو موجود حقا

انحني يوسف ليقلص المسافة التي أحدثها فارق الطول بينهم ثم

همس في أذنها مداعبا:

- كيف الحال؟

فابتسمت بخجل

- أنا بخير

ثم توردت وجنتاها وانصرفت سريعا مهرولة إلى الداخل فناداها

- إلى أين؟

فضحكت والدته:

- لقد أخجلتها يا يوسف

فنظر إلى والدته:

- سبحان الله يا أمي، لم ترث أي شيء من والدتها

- نعم يا حبيبي لم ترث شيئا من أحد، نبتت وكأنها زهرة نادرة

أبت أن تشبه أحدا في شيء. دخلت أمل إلى غرفتها ثم ارتمت على سريريها ترتجف بشدة تشعر بدوار وكأن الأرض من تحت أقدامها رخوة، كأن الكون يدور من حولها، تشعر داخلها بضجيج لم تعهده فهي الفتاة الرزينة العاقلة المهذبة العقلانية، هي تبلغ من العمر فقط سبعة عشر عاما، ولكن عقلها الناضج كان يسبق عمرها بسنوات عدة. بالحقيقة لم يكن عليها أي لوم أو عتاب، فقد وجدت نفسها فجأة أمام أسطورة نشأت على سماع روايات عدة تحمل اسمه، حتى أصبحت تحلم به كل ليلة، وعندما تجسد حلمها إلى حقيقة تبين لها أنه كما قابلته بأحلامها تماما بل وأكثر، كان له جاذبية أبطال القصص التي طالما تركت دروسها لتغوص بين صفحاتها وتنسى العالم وتنسى بها واقع حرمانها الأب والأم، لطالما تمنته أن يكون أربعيني أو ثلاثيني هادئ وسيم رزين يكن لها أبا وأخا وحبيبا يعوضها عن كل ما فقدته، تمنته شابا ذو قلب لا يشيخ، لا تدري لماذا اشتمت كل هذا بيوسف في الثانية التي التقت بها أعينهما واقترب زفيره من أذنها وكأن روحه تلبستها وسكنت بها، بلا منطق، على الجانب الآخر.. كان يوسف لا يزال يحاول أن يستوعب أنه وأخيرا في حضن هذا البيت من جديد، راح يحدثه والداه عن أيامه وغربته وهو يستمع إلى كلماته بشغف، وما أن يتم والده جملة حتى تلتقط والدته منه أطراف الحديث

لتثرثر كثيرا وكثيرا، كان المجلس كله لا يصد، وأخيرا وجدا ابنهم الذي لم يكونا يحلما يوما بلقاءه مرة أخرى، وأم تمنت كثيرا أن يطيل الله بعمرها حتى هذا اليوم الذي ستضم طفلها أليها مرة أخرى ولو كانت أخيرة، وشاب اختطف من أجمل أحلامه وأيامه وآماله ليقذف به في معتقل من الغربة والاشتياق والفراق، كان جل ما يتمناه والداه هو ألا ينبش أحدهم في الماضي المخزي الذي أصابتهم جميعاً لعنته، غابت أمل عن المجلس، اكتفت بأن تسترق السمع بين الحين والآخر من خلف باب غرفتها الموصد، كانت تستمع وتستمتع بصوته الدافئ الحزين وكلماته العذبة المنمقة، كانت تنصت بإمعان إلى حديثه الشيق، تسمعه وكأنها تراه بقلبها، لم تستطع الخروج من غرفتها هذا اليوم، تشعر بشيء يحدث لها لا تستطيع أن تجد له وصف، راحت تبكي ثم تضحك ثم تغني ثم تثرثر لنفسها بكلمات غير مفهومة، ثم تهرول إلى مكتبها وتروي ما يحدث لها إلى كتابها الصغير الذي طالما كان صديقها الوفي الذي يكتم السر ولا يتخلى عنها يوما، تحاول أن ترتب شتات أمرها أو أن تنظم تلك الفوضي التي حلت بداخلها كإعصار، أخذت تكتب وتكتب وتحكي له عما حدث مع يوسف، ثم انتبهت أمل وراحت تضحك ثانيا وهي تقول:

- ما حدث! ولكن لم يحدث شيء، فقط كانت مصافحة

قصيرة وكلمات عابرة تقال في مثل هذه المواقف راحت تسأل نفسها:

- ماذا حدث لك؟ هل جننت؟ لقد أسرتها روايات الجميع عنه حتى إنها سقطت في بئر عشقه من قبل أن تراه، فالكلمات

أحيانـا أشـد قـوة مـن الأفعـال، هـي مـن تشـيد قلاعـاً قـد تبلغنـا عنان السماء وهي أيضا قادرة أن تقذف بنا إلى هاوية لا قاع لها فنسقط ونسقط بلا نجاة وإلى اللا قاع.

جلسـت الجميلـة أمـام مرآتهـا والتقطـت مشـطها ببـطء وراحـت تمشـط خصـلات شـعرها الذهبـي فتجعلهـا تنسـدل علـى وجههـا

فـي رقـه واسترسـال، كانـت شـاردة مبتسـمة تغلـق عينيهـا كلمـا تنهـدت بشـوق وحنـان.

- لا يا أمل لقد تحدثتم كثيرا بأعينكم

ثم انتبهت سريعا فاعتدلت بجلستها ولملمت خصلات شعرها إلى الخلف في انفعال ثم تمتمت بصوت جاد:

- مـا هـذا الشـتات، أنـا أبـدو أمـام نفسـي وكأنني انشـطرت إلـى

شـخصين مختلفيـن، كلاهمـا يحـاول أن يقنـع الآخـر أنـه علـى صـواب، يالـك مـن يوسـف. وفي تلك اللحظة قاطعهـا صـوت والـدة يوسـف:

- أمل، هيا لتناول العشاء

فانتفضـت بشـدة حتى سقط المشـط مـن يدهـا فالتقطته سريعا ثم التقطـت أنفاسـها وأجابتهـا بصوتهـا المرتجـف:

- أشكرك جدتي، ولكني لست جائعة

أوف.. رباه لقد أفزعتني يا جدتي.

كانت أمل تشعر برهبة وخوف من أن تلتقي عيناه بعينيها ثانيا، شعرت بأنه يكفي اليوم إلى هذا الحد لا أكثر، على الأقل حتى

تفهم ما يحدث لها. حل المساء سريعا وكأنه مرت دقائق، كان قد جلس يوسف طوال اليوم يستمع إلى سنوات تُختصر ببعض الروايات والجمل، راح والداه يهونان عليه ما مر به من أذى، راحا يطلبان الصفح، لم يكونا يعلمان أبدا أن الألم الذي ألم بيوسف في غربته وفقدانه الوطن مرة تلو الأخرى كان خير معلم له، علمه أنه لابد وأن يكن بقلوبنا مكان دائما للتسامح فلربما لا يمهلنا الزمان فرصة العودة للصفح. صار يطمئنهم على قلبه ولعله يكذب ولكن ما عساه يفعل أمام عيون يشتعل بها الرجاء والندم خاصة وإن كانا عيون والداه.

حل الليل وانتهي الجميع من تناول وجبة العشاء وهم يوسف

بالانصراف إلى النوم فلقد لاقي في سفره تعبا وإرهاقاً كانت غرفته وغرفة أمل متجاورتان وكان هذا بأمر منها يوم أن كبرت وصارت تهتم بكل شيء يحمل بعض من يوسف، طالما حملت أمل بداخلها يقين أنه يوما ما سيعود إلى غرفته:

- فلم لا نصبح جيران لربما استطعت سماع صوت أنفاسه من

خلف جدران غرفتي

لربما صارت أنفاسه ونسي في ليلي الطويل.

الفصل التاسع

دخل يوسف إلى غرفته ثم أغلق الباب من خلفه في لحظة توقف به الزمان، راح ينظر حوله برهبة وأسى:

- أخيرا غرفتي التي على غير عادة كل شيء هنا لا زالت محتفظة بحلتها القديمة كيوم تركتها ورحلت عنها، لم تتغير قيد أنملة. ثم نظر إلى مكتبه الذي طالما جلس عليه بلحظات فرح وحزن، ثم توقف أمام خزانة الكتب خاصته ومد يده داخل حقيبته الصغيرة التي حملها معه دائما ليخرج مفتاحا قديما ثم جثي على ركبتيه ليفتحها وما أن انفرج القفل وفتح بابها حتى فاحت

منها رائحة الماضي فعادت به أعواما إلى الخلف، فاعتدل في جلسته وراح يخرج كل ما في الخزانة، هذا كتاب مدرسي قديم

حمل وردة أهدته إياها منى يوما فوضعها بين طياته بشوق لتجف ولا تتخلى عن عطرها، الآن يحملها بين يديه لتغرقها العبرات وهو يتذكر يوم أن أهدته إياها، وهذا صندوق موسيقي هو الآخر

أهدته إياه منى في يوم ميلاده، وهذه أوراق التوت التي كانا يقطفاها سويا كل موسم توت ليحتفظ كل منهم بورقه يكتب

اسم الآخر عليها في صندوق صغير احتفالا بقدوم موسمهم الذي ينتظراه طوال العام حيث لم يكن يسمح لهم بالذهاب

إلى الحقل سوى لزيارة شجرتهم فقط، وفقط حين تثمر، وهذه ورقة كتبتها منى إلى يوسف حينما كانا يجلسان بظلال الشجرة

حبيبي هذه الشجرة التي شهدت أجمل لحظاتنا معا خالدة بخلود حبنا إنها كلمتي إليك وكلمتك إلى، شجرتنا أشبه بكلمة

طيبة يحملها كل منا بداخله للآخر، أو لم بشبه الله الكلمات الطيبة بالشجرة الطيبة، أشهدها وأشهدك وأشهد الله أمام كلمتنا

الطيبة أنه وبحق أصلها الثابت وفروعها التي تداعب السماء، سأحملك داخلي مهما كلفني الأمر ولن أتخلى يوما عن السكون إليك وهذا وذاك.. غاص يوسف بين طيات الذكريات باكيا مبتسما متأرجحا بين الحزن والاشتياق ويالهم من سوطين كل منهما أشد من الآخر يلدغان قلبا لم يعد يحتمل أي شيء، ولكن لابد من اللجوء اليهم، أحياناً تتوقف بنا الحياه فنضل الطريق ثم نعود مرة أخرى في محاولة يائسة لنبحث عن ذكرى سعيدة تركناها خلفنا في أشياءنا المهجورة غدراً أو كمداً أو حتى عمداً فنصير نستجدي كل شيء على أمل أن نجد ما قد يضمد قلوبنا الدامية، ولكن في النهاية نحصل فقط على أرقام وتواريخ وبعض من قصاصات الورق التي توشحت بغبار الماضي الصامت، وربما وجدنا تذكار جف أريجه ليعلن وصولنا من الطريق إلى المفترق، وليقذف لنا بحقيقة أن ما تركناه خلفنا صار طي الماضي والنسيان وأنه لم يتبق منه سوى جرح غائر سنظل نتألم كلما ذكرناه. قضت أمل ليلها الطويل بلا نوم، كانت تنام دقائق وتستيقظ ثانيا وكأنما أبت عيونها النوم هذه الليلة.

وفي الصباح الباكر استيقظت أمل لتستقبل يوما جديدا، أو ربما كان عهداً جديد، كان فجرا مختلفا تماما عما سبقه. نهضت من سريرها وجلست قليلا تفكر، هي لا تريد أكثر من أن تراه مره ثانية ولو للحظات فقط، تريد أن تلمح عيناه مجددا، تريد أن تختبر ما حدث لها بالأمس لربما كانت مخطئة:

- يا إلهي ماذا أن كنت أتخيل أو أنه كان حلم يقظة كما اعتدت الأحلام طوال عمري، ربما أوهمت نفسي بما رأيت

بعينيه، ليتني لا أخذل نفسي مجددا وأبدو كفتاة صغيرة حمقاء تسعد بكلمات الإعجاب، لا أنا لن أفعل هذا:

- اثبتي يا أمل، أنت قوية لا تستسلمي. توضأت أمل ثم صلت الفجر ودعت كثيرا أن ينير الله بصيرتها إلى الصواب ثم راحت تتزين وكأنها تستقبل يوم العيد فهرولت إلى خزانة ملابسها واختارت فستان أبيض ناعما يجعلها تبدو

وكأنها ملاك هبط إلى الأرض، ثم جلست أمام المرآة تمشط شعرها متعمدة أن تترك خصلاته الزمردية تنساب على خصرها

في حرية بلا قيد تتطاير بسحر، ولم تغفل أن تضع القليل من عطرها الذي يحمل رائحة الورد الجوري، ثم ارتدت أساورها

الذهبية الرنانة وانتعلت بقدميها حذاءا يحدث ضجة أثناء المشي، كانت فكرة في غاية الدهاء منها، أرادت الذكية أن

تصدر صوت لخطواتها فلربما لا زال نائما فتتمكن من إيقاظه، كانت بشكل أو بآخر تشعر أنه لم ينم أيضا بل وينتظرها حتى

يراها. لم يكن قد خلد إلى النوم سوى بضع دقائق، رآى منى بحلمه تبتسم له ثم تشير بإصبعها إلى شجرة التوت، فاستفاق من نومه لا يرى سوى ملامحها، وكالأيام الماضية إذا بالشمس قد أشرقت وأرسلت أشعتها الدافئة من خلف زجاج نافذته فسقط

شعاعها على وجهه، نهض يوسف من الدقائق التي غلبه بها النعاس ليجد نفسه يفترش الأرض أمام أشياءه القديمة وقصاصاته

الباكية فهم بالنهوض إلى نافذته، وفي لحظة انتظرها دهراً فتح يوسف النافذة يستنشق الهواء العليل، راح يملأ صدره به بنَهم شديد، كان المشهد تماما أشبه بما مضى، بدا الصباح وكأنه هو نفس صباح الأمس البعيد سنابل القمح الذهبية التي تنتظر الحصاد وأشجار الفاكهة وعبير الأزهار في الأجواء، هي نفس

الأجواء، هو نفس المشهد وكأنه غط في نوم ثمانية عشر عاماً ثم استفاق ليفتح نافذته كما كان يفعل قديما، أحاطت به ذكراه

من جديد فعاد ليجلس على حافة سريره يسأل نفسه:

- إلى الآن أنا لا أصدق ما يحدث لي، لا أصدق أنني حقا عدت، ولكن هل سأقوي على هذا الصراع؟ هل سأصارع ذكرياتي؟ وهل يا ترى من منا سيصرع الآخر؟ قاطعه صوت يأتي من الخارج:

- صباح الخير يا جدتي

قالتها أمل بصوت مرتفع وكأنها تتعمد أن يصل إليه صوتها، كان

يشعر بجوع شديد، لربما جوع المشاعر التي نهبت منه ولربما جوعاً لعطف فقد مذاقه في غربة مظلمة أحاطت به، هو جائع لكل ماهو قديم يحمل رائحة سنواته الراحلة بلا عودة، خرج يوسف وأغلق باب غرفته من خلفه، نظرت أمل نحوه بلهفة ثم راحت تحدث نفسها

- لم أكن احلم، لا زال هنا، هو ليس من نسج خيالي إذا ثم راحت تهدئ من روعها:

- تمهلي يا أمل وتماسكي. كان ينظر من حوله محدقا بجميع أركان المكان وكأنه يرتوي من كل شيء، طالما ظن أنه لن يعود إليه من جديد، وعندما انتهي بعينيه المطاف إليها وجدها تنظر إليه بابتسامتها التي تحمل الندي تحاول أن تخفف عنه وطأة ما لحظته بعينيه التي لا زالت تائهة كطفل ضل طريق العودة إلى بيته فراحت أمل تحادثه بمرح:

- صباح الخير وأخيراً استيقظت، ما كل هذا النوم؟

فرد عليها ضاحكا:

- صباح الخيرات، أي نوم وأي تأخير؟ نحن لا نزال باكراً جدا ومع ذلك نأسف للتأخير سيدتي ونعدك أنها ستكون المرة الأخيرة.

قاطعهم صوت والدته ضاحكة:

- احذر أن تخالف القواعد، فأمل صارمة جدا في هذا الأمر،

صباح الخير يا حبيبي، ابتسم يوسف وانحنى على جبين والدته يقبله:

- صباح الخير يا أمي، وهل أمل هي من تضع القواعد هنا؟

- نعم أنا هل من اعتراض!؟ فأجابها ليبادلها المزاح:

- ولكن ماذا إذا كانت قواعدك لا تستهويني؟ أو أنني مثلا قررت

تغييرها؟ فسكتت أمل قليلا وراحت تنظر إليه فسألها مجددا:

- ما بك لا تجيبيني؟ هل أكلت القطة لسانك؟

ضحكت والدته:

- أنت تخجلها يا يوسف على غير عادتها، فأمل ليست خجولة وليست هادئة كما تبدو لك، انتظر قليلا حتى تعتاد

وجودك وسترى بنفسك، هذه الفتاة أذهبت عقولنا أنا ووالدك

بجنونها وحيويتها ونشاطها المفرط. ضحك يوسف ثم نظر إليها:

- لا تحزني أنا فقط أداعبك، افعلي ما تشائين يا صغيرة فأنت لا زلت بأول عمرك، لابد وأن تعيشي كل لحظة كما يحلو لك،

اللهم سعادة لقلبك لا تنتهي أبداً. تلعثمت أمل هي تبتسم إليه تردد في داخلها:

- يبدو أنك سترهقني معك، ولكن لا يهم أنا لها. ثم همت بالانصراف:

- تريدين شيئا مني يا جدتي؟ سأذهب للخارج لأرى ما إن كانت سعيدة انتهت من إعداد الفطائر.

- لا، اذهبي أنت يا أمل وأخبريها أن تسرع قليلا. سامحني يا ولدي لم أكن أعلم أنك ستستيقظ باكرا هكذا

فجلس يوسف إلى جوار والدته ثم أجابها:

- لا يا أمي، لا تشغلي بالك، أنا لم أعتد أن أتناول الفطور صباحا. فأمسكت والدته بيديه وكأنها ترشده إلى طريقه:

- لا يا حبيبي كان هذا في الماضي، الآن وما أن عدت إلى

قواعدك من جديد صار لابد أنت نجتمع سويا على مائدة الإفطار كل صباح، كان هذا حلم يا يوسف فلا تحرمني تلك

اللحظات. فتبسم يوسف:

- لك ما تشائين يا أمي. ثم راح ينظر حوله في محاولة منه لتغيير مجري الحديث:

- لما لا أرى أبي أين هو؟ فمسحت والدته عبراتها وهي تغير نبرة صوتها أيضا وكأنها فهمت ما يقصده:

- ستجده في الحقل، لقد ذهب قبل قليل، أنت تعلم، اقترب موسم الحصاد

- حسنا سأذهب إليه وسنعود معاً لتناول الفطور. ثم انصرف يوسف إلى الخارج، وما أن فتح الباب حتى رآها أمامه، كانت

تقف تغلق عينيها مستندة إلى جذع الشجرة، وقد وضعت يدها على صدرها وكأنها تلتقط أنفاسها مرهقة تحاول أن تستجمع شتات نفسها، نظر إليها بقلق:

- ما بك؟

ففتحت عيناها متفاجئة عندما رأته أمامها وعيناه تحدقان بها بخوف ثم راحت تحاول السيطرة على انفعالها مجيبة بحدة

- لا شيء

- إذن لم تقفين هكذا وكأن شيئا يؤلمك؟

- أنا.. لا لقد.. لم يكن يعلم لم توقفت لالتقاط أنفاسها؟ لم يكن يعلم أنها توقفت لتعاود الانقضاض مرة أخرى، لم يكن يعلم أنها عزمت

في نفسها وبشده أن تخطفه إليها رغم عنه حتى ولو لم يكن يأبه، همت أمل بالركض وهي تحدث نفسها

- سأذهب من أمامه قبل أن يغشي علي وسأكون بموقف لا

أحسد عليه وقف يوسف مكانه تسيطر عليه حالة من التساؤل

- ما بال تلك الفتاة؟ عاد يوسف إلى الداخل مجددا ثم جلس إلى جوار والدته:

- أمي حدثيني عن أمل

الفصل العاشر

تنهدت والدته بألم وتكاد الأنفاس تشق صدرها:

- ماذا أقول لك يا ولدي، أمل هي كل ما تبقي لنا بعد وفاة والديها ثم عمك وزوجة عمك حزنا على فراق ابنتهم الوحيدة

وزهرة عمرهم، فلم يعد لها بهذا العالم سوانا، أمل هي العوض عن

الجميع وهي هدية القدر لنا كي يثلج قلوبنا، ثم راحت والدته تتنهد مجدداً بحزن وعيناها تفيض من الدمع، واصلت حديثها:

- أذكر يوم جاءت إلى المنزل طفلة صغيرة لا تستوعب ما يدور

حولها ولا تعي ما معني إنها أصبحت يتيمة الأبوين وحيدة في

هذه الدنيا، كانت كزهرة قطفت للتو وجاؤوا بها إلى أرض لم

تعهدها، أحببنا بها براءتها ورقتها وذكاءها الملفت، وعشقنا بها رائحة منى، نحمد الله أنها لم تكن بصحبة والديها في تلك الليلة المشؤومة، هي فقط من هونت علينا مرارة الأيام، ولكن على الرغم من هذا فإن عمك وزوجة عمك لم يتخطيان يوماً فقدانهم

لمنى، وزاد الأمر سوءاً تأنيب الضمير فبعد عام واحد من وفاتها توفي عمك وبعدها بقليل لحقت به زوجة عمك، توفي الاثنين

حزناً على رحيل منى وتركوا لنا الصغيرة لنربيها، ماذا أخبرك أكثر عن أمل؟ أمل هي جنتنا على الأرض، هي ملاك تحمل بقلبها حنان العالم كله، تحلم بالخير لكل البشر، هي مصباح بيتنا المضيء، اللهم أدمها علينا نعمة يا رب واحفظها من الزوال. ثم جففت عائشة دموعها وهي تحاول أن تلطف الأجواء وتبسمت قائلة

– بالمناسبة يا يوسف لطالما استهواها الحديث عنك وعن أي شيء يتعلق بك، كانت دائما تطلب منى أن أحدثها عن كل ما

تحب وتهوي، حتى طفولتك ثم عادت اختفت ابتسامة عائشة من جديد ولاحت بعينيها دمعة أخرى:

– أذكر يوم أن سألتني لماذا اخترت أن ترحل عنا طويلاً، فأخبرتها بكل أسف أنك لم ترحل عن قصد و بأننا نحن من هجّرناك عنوة

ثم رويت لها قصتك مع والدتها وكم أننا أذنبنا بحقكم يوم أن فرقناكم ظلماً. لم تجبني الصغيرة بكلمة واحدة ظلت أيام تبكي بغرفتها حزناً على قلبك وقلب والدتها المنفطر، انتبه يا يوسف فأمل حساسة جداً، مرهفة المشاعر حتى وإن بدت أمامك مازحة مرحة، ففي لحظة يغادرها كل هذا المرح وتصير تحمل بعينيها حزن العالم كله، فاحذر أن تري منك ما يحزنها، فما يحزنها يحزننا أيضا.

تنهد يوسف هو أيضا بعمق:

– تماما كوالدتها؟ لا تقلقي يا أمي لن افعل أبداً، رحم الله من كانوا لنا كل الحياه، من كنا نتمنى اللقاء معها ولو لمرة أخيرة،

ولكن وقفت الأيام حائلا دون ذلك. انصرف يوسف إلى الخارج مرة أخرى، وأمام المنزل كان جذع الكافور في انتظاره، وضع يده عليه يستحلفه أن يخبره بأن ما يحدث له مجرد كابوس، وأنه ماهي إلا لحظات وسيستفيق ليجد منى تنتظره أمام هذا الجذع فيحضر حقيبته ثم يتشبث بيدها ويهرولا إلى المدرسة سوياً، ما أجمل الأحلام وما أبشع أن تكن فقط أحلام على ذمة الماضي غير قابلة للتنفيذ، راح يلمس كل شيء أحاط به غبار الماضي الأليم راح يصافح كل شيء يحمل ريحها. ولكن لم يجد سوى ذكريات مؤلمة تعذب الفؤاد وتعتصره، كل شيء من حوله طغى عليه ألم الماضي فلم يترك سوى ذكرى تؤلم فلا تسمن ولا تغني من جوع. مضي يوسف إلى الحقل، وفي طريقه كان ينظر إلى ما حدث في القرية وما حل بها من تغيير كانا قد تعاهدا عليه قديماً هو ومنى

- تغيرت ملامح وجه هذه القرية يا حبيبتي كما عاهدتك، لقد وفيت بوعدي ولكن أين أنت لتشهدي على ما فعلناه سويا؟ نعم

سوياً، أنت من خططت لي وجعلتني أقسم بصدق وأنا لم أفعل

شيئا سوى أني رويت نبتة أنت من غرستها بقلبي، نبتتك أزهرت يا منيتي، صارت هناك مدرسة ومتنزه ومصلى للنساء ومكتبة كبيرة، أسأل الله أن يكن كل هذا بميزان حسناتك، صارت قريتنا كما حلمتِ بها ولكن أيناك أنت من حلم تحقق فأفقدني

غيابك الشعور بمذاقه. طريق طويل حزين يخطوه بخطوات فلا يكاد يصدق أن قدماه تطأ هذه الأرض مجدداً، تنعي خطواته طرقات طالما شهدتهم هو ومنى أطفالاً ذهبوا وغدوا منها سوياً تتشابك

أيديهم بشيء هو أعمق من الحب، مرات حملتهم السعادة بعد أن قضيا وقت سرقاه من الزمان عنوة وقت أن كان من حقهم أن يفعلا ما يحلو لهما، ومرة كانت الأخيرة عاد بها وحده حزيناً منكسراً لا يقوي على الحراك وكأن أقدامه شُلت حتى أبت العودة لحبيبة تنتظر ما لم يستطع أن يحمله إليها ليس ضعفا ولكن تخاذلا من أيامهم القاسية، راحت تحدثه نفسه بأسى:

– مضى من الزمان قدر ما مضى، وتبقى منه ما تبقى، وعلمياً لا زالت تلك الأرض هي نفسها وسماءها أيضا لم تتغير ولكن

بقلبي لم تعد هي نفس الحياة ولا هذه هي الدنيا التي تركتها خلفي يوم أن افترقنا، بغيابك رحل دفء الشمس، صار بلا شمس، وبفقدانك فقدت الإحساس بالنسيم، صارت دنياي بلا

مذاقك وقد كان الأروع حبيبتي، حقاً أن الله رحيم بنا يعوضنا

بالأمل وسط غياهب الأقدار، ولكن يبقى للبعض مذاق لا ولن

يعوضه شيء حتى وإن صارت الأرض والسماء مسخرتان بين يدينا، فسلاماً لروح سكنتني فحييت بروحها، وأسكنني رحيلها

منازل الصابرين. كان كل شيء حوله على طول الطريق يذكره بها، الذكريات هي جلاد ينحر القلب رويداً رويداً بلا شفقة أو رحمه ولعل أسوأ ما في الذكريات هو ثوبها اللامع الدامع الذي يتشكل لنا في هيئة حنين يحملنا فنذوب به ونظل ننهل وننهل إلى أن نلقى مصير الفراشة التي أحرقت جناحيها ويكشف لنا أنه ماهو إلا ماضي عقيم لن نجني خيراً.

- هنا ركضنا وهنا ضحكنا، أتذكر يا منى يوم أن ارتطمت قدمك بصخرة هنا فجرحتك بشده فقمت بحملك على يداي

إلى المنزل ثم أحضرت فأسا وعدت إلى هنا مرة أخرى ولم أترك هذه المكان حتى مهدته وأصلحته تماما للعابرين خوفا من

أن تمرين من هنا مرة أخرى فتؤذيك نفس الصخرة، الآن أمر به وحدي حيث أواجه حقيقة أنك لن تمرين من هنا ثانية ولن

تضايقك صخرة في دنيانا الدميمة تلك، على الضفة الأخرى أرى شجيرات الريحان تلك التي لا زالت على حالها يبدو أن مالك هذا البستان لا زال مصراً على أن يحفه بها، أتذكرين يا منى عندما كنا نمر من أمام هذا البستان فتتوقفين قليلا لتشتمين رائحة الريحان التي كانت تعبق بهذا المكان، كنت تعشقينها بشدة، أذكر كلماتك لي عندما أخبرتني بأنه إذا ما صار لنا يوما

بيتا ستزرعين به ألف نبتة ريحان فيصير صباحنا برائحة الريحان وهكذا يكن بيتنا بحق قطعة من الجنة، لا زلت أحمل زهوره التي

طالما تهاديناها، أدعو الله أن يهبك جنة من ريحان في جنانه وأن يرحم روحك الطاهرة، أتدرين ما هو أكثر شيء يؤلمني؟ شعوري أنني بزمان غير زماني ومكان غير مكاني وأشياء أراها

وكأنها المرة الأولى رغم أنني نشأت بينها، وكأنك كنت مرآتي التي أنظر بها فأري من خلالها كل شيء، رحلتي عني الآن، وما أصعب أن ترحلي وتأخذي معك النور فتتركيني أعمى، لا

أرى ولا أشعر. وصل يوسف إلى الحقل فإذا بوالده يقف في

نفس المكان بجوار تلك الشجرة سارحا شارد الذهن مهموما، وقف يوسف يراقبه على بعد خطوات محدثا نفسه

- يا لهذا الزمان، مر على هذا اليوم أكثر من ثمانية عشر عاما وأنا أقف الآن بنفس الموضع أتذكره وكأنه كان يوم أمس، الأيام

هي خصمنا الأول من يوم أن نولد حتى نخرج خارج دائرتها تظل تفاجئنا بما لا نهوي أحيانا واحيانا أخرى تأتي محملة بالسعادة، ولكن هيهات أن تثق بها، فهي غادرة، في لحظة

تنتزع منك كل ما تهبك لتتركك خالي الوفاض. ربت يوسف بيده على كتف والده:

- صباح الخير يا أبي

التفت إليه والده متفاجئاً عندما رأي يوسف يقف أمامه ليكمل

له المشهد الذي كان يجول بخاطره للتو فنظر إليه بشيء من الانكسار وإذا بعينيه مغرورقتان بالدمع.

- ما بك يا أبي؟

- أتذكر يا يوسف ذلك اليوم الذي جئتني لتطلب موافقتي على

خطبة منى؟ كنا في نفس هذا الموضع بظل شجرة التوت هذه، ليتني استمعت إليك بقلبي يا بني، وقتها لم أكن لأقسو عليك

كل تلك القسوة، ليتني تخليت عن عجرفتي يا بني ما كان حدث لنا كل هذا الآن.. قاطعه يوسف:

- لا يا أبي لا تلومن نفسك فأقدارنا تكتب قبل أن نولد، هذا هو قدري وهذا هو ما حدث، لا نقول إلا ما يرضي الله، قدر

الله وما شاء فعل. نظر إليه والده بلهفة:

- هلا غفرت لي يوما يا بني؟

- لقد غفرت بالفعل يا أبي، غفرت، ومن أنا حتى لا اغفر؟!

احتضنه والده بشده وراح يبكي:

- حقا يا بني؟ لا أكاد أصدق ما تقول

فجفف يوسف دموع والده ثم أمسك بذراعه:

- هيا بنا الآن، لقد أعدت والدتي طعام الفطور وأنا حقا جائع. فربت والده على كتفه بحنان واحتواه بعينيه السعيدتين أخيرا

- هيا يا بني، وفي طريق العودة من الحقل، وعلى ضفاف الجدول المائي، كان جميع من في البلدة يشاهد يوسف وهو يمشي بجوار والده يتحدثان ويضحكان وقد استبدل والده عصاه بذراع يوسف في مشهد ينتقل بالجميع إلى اللا معقول، كان كل من بالقرية يظن أنه لن يعود هذا المسكين أبدا بعد أن غدره أهله

وقذفوا به إلى غربة موحشة ليقضي أجمل سنوات عمره في قسوة وحرمان، غربة لا مبرر لها ولا مغزى منها، لم يكن يعلم أحد لم

قد يسافر شاب في مثل ظروف يوسف، جرى العرف أن من يسافر هو الشاب الفقير الذي يحتاج إلى حفنة مال ليبني بيت

أو يتم زواج أو يشتري قطعة أرض زراعية لتصير مصدر دخل، ولكن يوسف؟! ولم قد يسافر يوسف ذو الحسب والنسب والأموال التي لا تعد ولا تحصى، ولم يسافر وحيد والديه واللذان

لا يملكان من العالم سواه. ظلت هذه الأسئلة عالقة بذهن الجميع، بعضهم أرجع السبب أن والده بخيل ولا يكفيه ما لديه من مال، والبعض الآخر كان يجزم أن يوسف هو من أراد أن يثبت نفسه، والبعض روى أيضا أن صديقا ليوسف هو من أقنعه أن يذهب معه، وقليلاً فقط هم من كانوا يعلمون الحقيقة، وبين هذا وذاك تفرقت الكلمات فلا أحد يعلم شيئا سوى أنه فتى قذف به إلى الهاوية ولم يعد يوماً ليبرر غيابه، ومع مرور الزمن والأيام ومع تكالب الأحزان على والديه وعدم عودة يوسف بدا الأمر مريبا، فبعد أعوام وأعوام أيقن الجميع أنه بعد أن غاب كل تلك السنوات وبعد أن غاب عن كل تلك المواقف التي تطلبت وجوده بشده ولم يحضر إذن فقد ترك كل شيء خلفه ولن يعود من جديد، وإن عاد فكيف سيستطيع أن يسامح والداه اللذان كانا سبب في غربته بشكل أو بآخر. بدا الأمر فوضويا غاية في التخبط والتيه، وصلا إلى البيت كانت أمل تضع الأطباق على المائدة، تركض لتحضر الفطائر ثم تعود لتجلب مزيدا من الأطباق ورغم وجود الكثير من العاملات بالمنزل إلا إنها كانت تصر أن تحضر بنفسها مائدة الفطور كل صباح، كانت فراشة حقا تتنقل بالبيت فتمأ أركانه بهجة وطمأنينة وسعادة، استهواه المشهد واجتذبه وللحظة شعر وكأن منى هي من تتحرك أمامه بخفة روحها وشخصيتها المبهجة التي تطغى على كل ما يحيط بها، كان يقف بعيدا، مراقبا في صمت يراقب أصابعها الرقيقة

تضع الأطباق وتنظمها، وقدماها الصغيرتان تهرول هنا وهناك وكأنها بالكاد تلمس الأرض، كانت تغني ولكن صوتها الخافت منعه أن يعرف بما تشدو

- صدقاً ذكرني ظلها بك يا منى، هي لا تحمل ملامحك أبدا ولكن بها روحك، بها قليل منك، يا تري بماذا تشدوا؟ اقترب منها قليلا دون أن يشعرها يسترق السمع.

ثم فجأة وبصوت هادئ سألها:

- أسمعيني ماذا تغنين؟

تفاجأت حيث لم تكن قد انتبهت لوجوده بعد فانتفضت مرعوبة:

- بسم الله، من أين ظهرت؟ لقد أفزعتني، قلبي سيتوقف. فنظر إليها:

- أنا أقف هنا منذ دقائق ولكنك لم تشعري بي لانشغالك بالغناء، لم تجيبيني ماذا كنت تغنين؟ فوضعت أمل يديها بخصرها ثم نظرت إليه بتحدي:

- لانشغالي بالغناء؟! إذن لا شأن لك بما أغني لن أجيبك، أو

أقل لك أمراً؟ اعرف وحدك فأنت دائما تعرف كل شيء. فتبسم يوسف بتعجب من ردة فعلها الطفولية التي تتحدى خريف قلبه الذي شاخ في ريعان شبابه، وكأنها تحرك ما سكن في الأعماق من أشياء كان قد أغفل وجودها، فضحكت وانصرفت إلى

المطبخ مجددا ثم عادت تحمل بيدها طبق من القشدة المخلوطة بالعسل، إذ كانت تلك وجبته المفضلة على الفطور فوضعته أمامه على المائدة ثم نظرت أليه في تحدي وبصوت يملأه الربيع:

- أترى؟ لقد أعددت لك بنفسي فطورك المفضل إذ أعلم كل ما تحب، حاول أنت أيضا أن تخمن ما أحب. كانت حقا أمل تكرس وقتها لتهتم بكل تفاصيله حتى الصغيرة منها بل وتتفنن في إبراز اهتمامها به وتتباهي بهذا، فوضع يوسف كوب الماء من يده ثم نظر إليها مازحاً:

- تعالي هنا أيتها المشاغبة الصغيرة، وما شأنك بي لتهتمين بتفاصيلي وما خطبي بك لأهتم بتفاصيلك أنا أيضا. فضحكت أمل ضحكة أزاحت ستار الظلام عن مائدة فطور طالما استعمرها الظلام وأجابته بصوت تملأه الثقة:

- شأني بك وشأني، لا علاقة لك بالأمر، أما أنت فعاجلا أو آجلا ستهتم لأمري كثيراً.. ثم جلست إلى مقعدها وهي لا تزال تبتسم ونظرت إليه بجدية ثم راحت تكمل حديثها:

- للعلم فقط أنا أبلغ من العمر سبعة عشر عاما أي لست طفلة، إذن لن أسمح لك مرة أخرى أن تناديني صغيرة. فضحك والدا يوسف حتى صار المكان كله يضج بالضحكات كان يوسف يراقب ما يحدث في ذهول!

- من هذه؟! وماذا تحاول أن تفعل؟! تناول الجميع وجبة الفطور، لم يأكلوا شيئا تقريبا، كانت والدة يوسف تتحدث وتتحدث وتروي ما حدث لهذه وذاك، كانت تحاول أن تحصر له ولو قليل

مما فاته في كل السنوات الماضية هي لا تعلم أنه لم يعد يأبه بشيء، يكفيه أنه عاش في الماضي أجمل سنوات عمره سدى، بلا هدف ولا ذكرى واحدة سعيدة، بين الفينة والأخرى كانت أمل تسترق النظر إليه وما أن تلتقي أعينهم حتى تبتسم وتشيح بنظرها إلى موضع آخر وكأنها لا تريد أن تجعله يلحظ اهتمامها به، ولعله هذا هو ما ترجوه، راحت تتمتم لنفسها بسعادة:

- أخيرا أراك أمامي، بل ويا لكرم الأيام سنتناول الفطور سويا

كل يوم. لقد كانت أمل منذ البداية واضحة جدا مع نفسها، فمنذ أن كبرت وصارت تعرف ما معنى كلمة حب وتعلق، ومنذ أن سمعت قصته بكل تفاصيلها وبحثت بين أشياءه وتوقفت عند

كل غرض لتفحصه بعناية حلمت به وانتظرته وكلها يقين من عودته، وفي الوقت الذي لم يكن أحد يجرؤ أن يحلم بعودة يوسف كانت أمل تسأل نفسها كل صباح ما إذا كانت رائحة

عطرها ستروقه إذا عاد اليوم، ربما اليوم ربما يوم غد ولكن في النهاية سيأتي يوم واجدك أمامي نتناول طعام الفطور سوياً. كانت صغيرة السن أن يحدث لها هذا ولكن كبيرة العقل والإحساس وكأن روحاً تلبستها فصارت ترسم لها خطوات تسلكها بكل ثبات. قلب يوسف كان هدفها ومبتغاها بكل وضوح وصراحة وتلقائية، ربما لأنها تشعر بأن به كل ما تحلم أن تمتلك، وربما كان أيضا إحساس بالمسئولية من ناحيته، تذكر أمل يوم أن قرأت عبارة حفرت بآلة حادة على جذع الكافور (سأعود لنبدأ من حيث توقفنا) تذكر أنها حزنت كثيرا لرؤيتها تلك الجملة تقف سنوات وحيدة فلا من مجيب ولا أحد يعود ليفي بوعده

معها، كانت كل صباح تجلس تتأمل حروفها التي ضربتها عوامل الزمن والتي ما وإن شرفت على الاختفاء حتى همت بإعادتها إلى الحياة مرة

أخرى فراحت مرة تلو الأخرى تعيد تحديدها وكأنها تبقي عليها لشيء ما، كانت تقول لها من كتبك ومن كتبت لأجلها رحلوا

جميعا وأنت هنا وحيدة مثلي تنتظرين تحقيق أمر أرجو الله أن يصير مفعولا فلم لا يحفظ كل منا الآخر.

ربما التفاصيل الدقيقة لقصة الحب الأسطورية تلك هي ما أثار حفيظة الفتاة المراهقة الحالمة التي انحصر عالمها بين واقع

مبهم الملامح يبدو الوقت به وكأنه توقف ولم يعد يستطيع الحراك وبين أشخاص رحلوا عنوة ولم يتركوا خلفهم سوى بعض

الأشياء القديمة التي أخذها فضولها فراحت تنبش بينها بقوة فأنضجها ما وجدت وما قرأت وما شعرت وما حلمت قبل

أوانها.

الفصل الحادي عشر

حل المساء وأخيرا بعد يوم طويل توافد به الأهل والأقرباء على بيت يوسف لإلقاء التحية والترحيب به، مر يوم آخر بكل ما

يحمله من عناء الترحيب والاهتمام بالزائرين، تنفس كل من بالبيت بتعب وذهب كل إلى غرفته ليرتاح قليلا قبل استقبال

يوم آخر طويل، كانت تمشي أمل بخطوات متعبه يكاد النعاس يقتنص جفونها عندما التقته في البهو قبل أن يدخل إلى غرفته

- تصبحين على خير يا جميلة

لم تكن منتبهة تماما له ولكن صوته نبهها فراحت تستعيد نشاطها بسرعة وتتأهب لأمر ما

- وأنت من أهل الخير والسعادة، هل لي أن أطلب منك شيئا؟

فأجابها بحماس:

- بالطبع تفضلي.

كانت المرة الأولى التي خاطبته بها بجدية وبشكل مباشر هكذا، نظرت إليه أمل بابتسامتها المعهودة:

- أرجو منك أن تعيرني بعض كتبك التي أخبأتها بمكتبك،

فقدومك شغلني عن زيارة المكتبة كل تلك الفترة الماضية وأنا لم أعتد الجلوس كل مساء بلا كتاب يؤنسني، أي أنك أنت السبب في توقفي عن القراءة، إذن فلتتحمل أنت نتيجة أفعالك.

ضحك يوسف بشدة:

- نتيجة أفعالي؟! أنت تقولين كلمات أكبر منك أيتها المشاغبة، ولكن فقط لأني أرى بك رجاحة عقل تسبق سنوات عمرك سأهديك مجموعتي التي اخترتها بعناية. فابتسمت أمل في سعادة بالغة ثم عقدت يديها من خلفها وراحت تتمايل بدلال وكأنها طفلة تستعد أن تطلب من والدها الحلوى:

- هل بإمكاني أن أسألك شيء آخر؟ فعقد هو الآخر ذراعيه فوق صدره وأجابها مبتسما:

- كثرت مطالبك الليلة، ولكن لا بأس تفضلي

- أريد منك أن تعيرني كل كتاب نقشت عليه بقلمك خاطرة أو هامش أو حتى كلمة كتبتها في وقت سهو، أريد أن أقرأ ما شعرت به وأنت تقرأ، أريد أن أتعايش مع الكلمات مثلما

تعايشت، ولو تكرمت وأهديتني بعض من رسائلك وخواطرك أيضا فلن أنسى لك هذا المعروف يوماً. عاد يوسف إلى الضحك حتى دمعت عيناه ونظر إليها باستغراب لا يصدق ما يسمع منها، ثم أشار إلى أريكة كانت بالقرب منهم

- اجلسي الآن! أريد الحديث معك. فجلست وهي تضحك أيضا:

- لقد جلست، هات ما عندك

فجلس على الطرف الآخر لأريكة ثم نظر إليها بإمعان:

- ماذا تحاولي أن تفعلي

فارتبكت أمل بشدة ثم راحت تغير نبرة صوتها وكأنها تقصدت أن تبلغه أنها ستحدثه الآن بجديه لا مزاح:

- لا أفعل أي شيء أنا فقط أهوى كثيرا اختبار المشاعر، أغوص

بالكلمات حد الغرق، تجتذبني كلمتان كتبتا على هامش صفحة

من كتاب قد يكون من كتبهم نسي أنه كتبهم من الأساس ولكنهم يحملان مشاعر قد لا يحملها الكتاب كله، أريد أن

اكتشف نفسك الصلبة القاسية تلك عندما تتعري أمام نفسها متأثرة بجملة في رواية أو بيت شعر بماذا ستنطق. نظر إليها والذهول يعتري كل ملامحه وقد اختلطت مشاعره بين التعجب والتساؤل:

- أمل، كم تبلغين من العمر؟

أجابته بابتسامة ماكرة:

- لقد أخبرتك من قبل أنني أبلغ سبعة عشر عاماً

- بل أنت أكبر من ذلك، فما سمعته منك للتو كلمات لم

تبلغها بعد ابنة السبعة عشر ربيعاً يا عزيزتي، هل لي أن أسألك

شيئاً آخر؟

- بالطبع، تفضل

- لم قد يستهويك البحث عن مشاعر عارية بلا تظاهر، وهل

تفعلين هذا دوماً مع الجميع فابتسمت أمل بخجل:

- لا، لم أفعل هذا يوما مع أحد، ولكن أنت صندوق مغلق

بالنسبة إلى فمذ أن كبرت وأنا أسمع اسمك في قصة أو رواية تثير فضولي نحوها لمعرفة المزيد، صورتك القديمة التي علقت على جدار كل غرفه هنا والتي تؤجج الأحزان بقلب كل من بالبيت، غرفتك التي ظلت سنوات موصدة، وحروفك التي حفرتها على شجرة الكافور، كل هذا كان أرض خصبة لنبتة الفضول وقصتك المأساوية كانت الماء التي روت تلك النبتة فنمت بقلبي وترعرعت، أشتم بأيامك رائحة أمي التي حرمت منها باكرا جدا والتي لا أذكر ملامحها ولا أحمل بداخلي أي ذكرى جمعتنا سويا، أنظر إليك وكأنني أرى الماضي وذكراه، أعلم أن أمي رحلت إلى عالم آخر ولكن أعلم أيضا أنها لا زالت تتنفس في مكان ما، هل ستتعجب إذا قلت لك أنني أكاد أسمع

شهيق أمي وزفيرها يصدران من صوت نبضاتك فاعتدل يوسف في جلسته:

- رحمها الله وأسكنها فسيح جناته، إذن أفهم من كل هذا أنك

تبحثين عن رائحة أمك.

- نعم، وليس هذا فقط، بل اسعي أن اجتمع معها في مكان

واحد! فانتفض وراح يحدثها بلهفة:

- استغفر الله، وهبك الله عمراً طويلاً يا أمل لا زلت في بداية

عمرك.. فضحكت أمل بعينين اغرورقت بالدمع:

- ليس هذا ما قصدت يا عزيزي، أنا لا أبحث عن الموت بل عن الحياة، كنت أقول لك منذ قليل أنني أعلم أن أمي لا زالت

حية وهناك حيث هي لا زالت على قيد الحياة سأجتمع معها.

- لا أفهم!

همت أمل بالانصراف:

- قريبا ستفهم، ولكن ائذن لي الآن بالانصراف فلقد غلبني

النعاس. انصرفت إلى غرفتها بينما ظل جالسا قليلا يحاول أن يفهم ما حدث منذ قليل، قلبه يخبره ولكن عقله كان يرفض استيعاب كلمات تنطق بها العيون فلا تكذب ولا يستطيع أحد أن يوقف تأثيرها، وفي صباح اليوم التالي كان يوسف قد احضر الكتب إلى أمل، فوضعهم في صندوق صغير ثم ذهب ليضعه أمام غرفتها عندما فاجأته بالخروج لتجده أمامها مباشرة

- صباح الخير

- صباح النور يا أمل، هذه هي الكتب التي طلبتيها منى، أتمنى

أن تحوز إعجابك، ثم يهم بالانصراف وقد بدت عليه مشاعر التخبط والقلق، كانت سعيدة بما وصلت إليه، فللمرة الأولى استطاعت أن تمتلك حيز من تفكيره وتشغله وتتركه متسائلا عما يحدث. تركته حائرا ثم جلست هي طوال اليوم تنقب بين صفحات الكتب لتنهل منها، تحب أن تقرأ ما قرأ هو، تؤمن بمقولة (قل لي ماذا تقرأ أخبرك من أنت) وهذا هو جل ما تبغي، تريد أن تعرفه عن ظهر قلب، يثير فضولها وحفيظتها ويثير ما في قلبها من براعم تفتحت على سيرته وروايات نسجت حوله حتى صار محور كونها، وفي المساء وبعد أن تناول الجميع طعام العشاء

ذهب كل منهم إلى غرفته، كانت قد اعتادت أمل أن تحضر كوب حليب دافئ لجدها كل ليله وبينما تخطو نحو غرفته حتى سمعته هو وجدتها يتحدثان عن زائرة منتظرة ستحضر غدا وأن لزيارتها سبب.

- سلوى عروس تناسبه يا أحمد، أليس كذلك؟ كانت نبيلة أحد أقرباء أحمد قد علمت بقدوم يوسف فأرسلت له تبلغه بحضورها لتطمئن على يوسف، كانا يعلمان أن لديها ابنه جميلة متعلمة في سن الزواج، لسبب ما قرر والدا يوسف أن يستغلا تلك الفرصة ليدبرا لقاء لهما سويا ظناً منهما أنهما بهذا سيذهبان قليلا من حزنه المحفور بملامحه وكأنه كثبان رمليه أنشأتها عاصفة من الأحزان. أجاب أحمد بحماس:

- لم لا يا أم يوسف؟ هي حقا بها من صفات حميدة ما يتمناه أي شاب، أدعو الله العلي القدير أن يتحقق ما نحلم به استوقف أمل ما سمعته وشعرت بدوار جعل قدماها تلتصقان بالأرض،

طرقت الباب فأذنا لها بالدخول، فدخلت وهي تكاد تسقط تنظر لأسفل تخاف أن تفضحها عيناها التي امتلأت بالدمع:

- مساء الخير يا جدي، الحليب. ثم وضعت كوب الحليب إلى جوار سرير جدها ثم انصرفت في هدوء على غير عادتها

- تصبحون على خير

فنظرا إلى بعضهما البعض في استغراب ثم سأل أحمد:

- ما بها يا أم يوسف؟ تنهدت عائشة حائرة ثم أجابته:

- لا أدري ولكن أمل تتغير كثيرا هذه الأيام، أحيانا صامتة شاردة، وأحيانا ترقص من السعادة، وكثيرا وحيدة تغلق على نفسها باب غرفتها بالساعات.

- لا يا أم يوسف لابد أن هناك أمرا، غدا اذهبي إليها وحدثيها

واسمعي منها لربما أرادت أن نعيرها بعض الاهتمام كما عودناها،

ربما سرق منها يوسف كل الاهتمام، ضحكت والدة يوسف ثم أجابته:

- إن شاء الله غدا سأتحدث إليها

قضت أمل طوال الليل تفكر، من قد تكون تلك ومن تستطيع

أن تسلبني حلمي بعد أن وجدته أخيراً، ولكن ماذا إن راقت له

بالفعل؟ ماذا إذا سلبتني ما أملك؟

ما أملك!؟ أنا لا أملك سوى قلاع بنيتها على الرمال وجلست وحيدة في انتظار أن يأتي الزمان بعصاه السحرية فيتمتم ببعض التعويذات ثم يشير إليها لتصبح قلاع حقيقية تحميني من المجهول وغدره وأصير وحدي أميرة متوجه فوق عرشها، فقط قلاع من الرمال. رباه، أشعر وكأنه قضي علي، ولكن لا، لن أتركك وإن كان رغما عنك فأنا لم أنتظرك كل تلك السنوات لتأتي إحداهن وتختطفك مني هكذا. في الصباح كان البيت على أهبة الاستعداد للزائرتين القادمتين

من بلد بعيد، أعدت الخادمات أصناف من الطعام المميز ولم تشترك أمل في إعداد هذا الطعام على غير عادتها، كانت تجلس أمام البيت تنتظر قدومهم، تتأهب لترى وقع النظرة الأولى على يوسف، هل ستكون مثل نظرته الأولى لها، وهل ستأسره وهل ستضطر إلى العدول عن خطتها أم أنها ستصر أكثر على المضي في تنفيذها قدماً.

الفصل الثاني عشر

وصلت سلوى ووالدتها إلى البيت فراحت أمل تسترق النظر إلى سلوى في فضول، لقد كانت فتاة طويلة بيضاء ممشوقة القوام ترتدي ثياب مهندمة وحذاء ذو نعل يرتفع عن الأرض كثيرا وتحمل حقيبة يد أنيقة، تبدو عليها ملامح الثقة بالنفس وتفوح منها رائحة عطر مميزة، تنظر بتعالي شديد، وتتحدث بصوت يضج بالثقة والغرور.

– حبيبي تعالى إلى حضني يا يوسف لقد اشتقت إليك كثيرا ألا تذكرني؟ أنا عمتك نبيلة، وهذه ابنتي سلوى، عندما سافرت كانت سلوى صغيرو ألا تتذكرنا؟ ثم أشارت نبيلة لابنتها، صافحها يوسف بشيء من الترحاب ثم جلسوا جميعا يتحدثون عن العراق والحرب وما يحدث بأحوال الوطن العربي، بدا لقاءه بها كأي ضيف آخر حضر إلى البيت، ولكن الخطر لم يزل بعد فسلوى كانت فتاة مثقفة جدا، متعالية، ذكية ولبقة أيضا أي بإمكانها أن تخطفه أو حتى تبهره ومن ثم قد يحدث ما لا يحمد عقباه. من الوهلة الأولى تيقن يوسف أن سلوى مجرد طُعم لصيد فريسة مغرية أتت من بلاد الرافدين، لم لا فهكذا جرى العرف وهكذا كانت تتم معظم الزيجات، حيث ينتظر الأهل والأقارب هذا العائد من الخارج المحمل بالأموال دون النظر إلى أي شيء

آخر، أينما وجدت الأموال صار كل شيء آخر بلا أهمية، لا فارق مستويات ولا فارق تعليم وفي هذه الحالة أيضاً لم يكن يهمهم فارق العمر، وعلى الرغم من أن عودة يوسف لم تكن بحسبانه أبدا، وعلى الرغم من أن الحرب كانت قد قضت على

مدخرات الجميع إلا أن يوسف هو ابن وحيد لأحمد الذي كان لديه ممتلكات يصعب على أحدهم أن يحصيها، كان يوسف ذكيا يشتم رائحة الزيف والخديعة من بعد أميال، لربما الأيام هي من علمته هذا بعد أن أوقعته أكثر من مرة في شركها القاتل، أصرت أمل أن تحضر هي القهوة إلى الضيوف حتى تجعله يرى أنها تلاحظ ما يحدث، وكأنها تحذره مما قد ينوي فعله، كانت حزينة هادئة تعلم ما يحدث وتخشي أن يحدث ما هو متوقع ومنتظر، انصرفت أمل شريدة مهمومة تحدث نفسها

- لمّ أنا حزينة، ولم أتمنى ألا يرتبط بها، سلوى عروس مناسبة جدا له فأعمارهما إلى حد ما متقاربه، أيضا أفكارهم متقاربة، ماذا سيريد هو أكثر من هذا وكيف لي أن أصدق ما تحدثني به نفسي اللاهثة خلفه، هو بطل شيدته أحلاُ م طفلة يتيمة حرمت

الأب، والأخ ولن تحظى يوما بهم، فارس حلمت به مراهقة متمردة كبرت لتجد نفسها هي كل دنيا كهلين جريحين ينظران إلى العالم بعينيها وتعتبر نفسها هي المسئولة عنهم لا العكس، فلم تكن لها فرصة أن تفعل كما تفعل الفتيات في مثل عمرها ولم تحظي بحبيب قط، أنا الطفلة الصغيرة التي لا تمتلك نصف عقله، والمراهقة التي تطير إلى السماء إذا ما لمحت ابتسامته بسبب كلمة قلتها، أما هو، فهو الناضج الحكيم العاقل، هو شاب جرح

وذَبل، وذُ بُح وحرق ثم نهض من بين رماده ثم اجتثته الأحزان مرة أخرى من الجذور، فظل يتألم حتى استساغ مذاق الأسى والعذاب حتى صار لا يهاب شيئاً قط، لم سيفكر بي أنا إذن؟ وما الذي قد يميزني عن غيري؟ جمال؟ ما أكثر الجميلات في قريتنا، أصل؟ جميع عائلات البلد كبيرها وصغيرها يتمنون أن يزوجوه من بناتهن، علم؟ طبيبات ومهندسات امتلأت بهن القرية وجميعهن يتمنين نظرة منه. لم يختارني أنا ويتركهن؟

ليتني لم أولد! ليتني لم أواجه شتات قلبي هذا! ليت هذا اليوم لم يأت لأرى به ضعف قلبي ووهنه. شعر يوسف أن قلبه يخفق بشده، وأنفاسه مؤلمة لا تحتملها رئتاه، شعر بأن شيئا يحدث، لم تكن سوى أفكار أمل المختبئة خلف باب غرفتها حزينة تحاول أن تقنع نفسها بما تتمنى أن يكون غير صحيح، فهم يوسف لإنهاء حديثه مع سلوى بلطف واستأذنها الذهاب لعمل مكالمة بالخارج في محاولة منه أن

يهرب من جلسة كانت كصخرة على قلبه لا يتحملها ولا يطيق دقائقها التي تمر ولا تمر، لم يكن يوسف ينوي الزواج مرة أخرى ولم يخطر بباله فكرة أنه قد يفتح قلبه الذي كان قد أغفل وجوده من الأساس، ومع هذا كان يشعر بريح طيبة تهب على صحراء قلبه فيطرب لها قليلا بين الفينة والأخرى ولكنه لا زال عاجزا عن تحديد اتجاه هبوب هذه الريح الطيبة وكأنه يغالط نفسه. حل المساء والتف الجميع حول المائدة، ولكن غابت أمل عن العشاء

- أين أمل؟ لمّ لم تحضر لتناول العشاء؟

- لا أري يا أبا يوسف لقد قالت أنها ليست جائعة

- هل هي مريضة يا أمي؟ رأيتها اليوم شاحبة ولم يسعني الوقت إن أسألها ما بها

- لا أدري يا بني، لقد حاولت أن أفهم منها ما بها ولكنها لم تتحدث كثيرا.

- لا يا أم يوسف إذا ما استمرت على حالها هذه فلتذهبي بها غدا إلى الطبيب لربما تتألم وتخجل أن تخبرنا كعادتها. أنهى الجميع وجبة العشاء وانصرفوا جميعا إلى غرفهم ليخلدوا إلى النوم، دخل يوسف إلى غرفته كعادة كل ليلة ولو أنها لم تكن أبدا مكان للراحة والنوم، فكان ينسل كل ليلة إلى غرفته ليندس بين ورقاته ليبحث عنها بينهم، كان يوقن تماما أنها لن ترحل دون وداع، وبينما هو ينقب بشغف تلك الليلة إذا بورقة صغيرة مكتوبة بخط مرتعش

- يا الله! هذا خط يد منى. لقد كانت رسالة منى التي كتبتها له يوم أن زارت شجرة التوت ويوم أن قررت والدتها زواجها من ابن خالها. ضم يوسف الرسالة إلى صدره بشده وراح يتنفس، بعض الورقات قد تحمل بين طياتها حياة بل وبعض الكلمات فقط قد تجعلنا نتنفس من جديد شهيقا يدخل إلى صدورنا اشتياقا ليخرج زفيرا يزهر ما حل بحياتنا من خراب، راح يدعوا لها بالرحمة، ظل

طوال الليل يقرأ الرسالة مرة تلو الأخرى يراقب كل حرف وكلمة، راح يبكي على ما حملته تلك الرسالة من حزن وعذاب.

– لقد كنت متيقناً أنك لن ترحلي بلا وداع، تأكدت أنك كتبت لي يا منى ثم عزم في نفسه أن يزور قبرها في الصباح، تلك الخطوة التي جاءت متأخرة بعدما جاهد روحه كثيراً ليقوم بها. على الجانب الآخر قضت أمل الليل كله حزينة مكتئبة تشعر وكأنما سقطت على رأسها صخرة جعلتها غير متزنة

–ربما لن يتزوجها فهي على الرغم من كل هذا لا تناسبه، أنا أعلم، جديا هو يبحث عن شيء آخر، لن تشغله هذه الطاوسة، ولكن إن لم تكن سلوى ربما سيجدون له فتاة أخرى، لمّ أعذب نفسي هكذا؟! أنا لست جبانة ولا ضعيفة، وهو بالنسبة لي ليس مجرد حلم أتمنى أن يتحقق هو روح سكنتني

قبل ميلادي وربما قبل ميلاده أيضا وليس بهذه السهولة سأترك الأمر يمر مرور الكرام، لابد وأن أضع حدا لما يحدث خيرا أو شرا، عندما يأتي الصباح سأذهب إليه وأخبره أني أحبه وأسأله بجرأة عما ينوي فعله، لربما أجابني بشيء ينتظره قلبي، لربما خابت ظنوني ودحض ترتيبهم، وربما أيضا أغلقت هذه الصفحة وتركته يرحل عني، صدري ولي الله، بعد هذا يكن ما يكن، المهم هو أنني أكون قد وضعت قدمي في موضع أعلم بعده إلى أين ستتجه خطواتي. حل الصباح أخيرا بعد ليل طويل بدا وكأنه لا نهاية له أبداً، خرجت أمل من غرفتها شاحبة الملامح تمشي بخطوات مثقلة وتقف أمام باب غرفته تتنفس بعمق ثم تطبق أصابعها الصغيرة وترفع يدها لتطرق باب غرفته ولكن تتراجع وتلتفت لترحل ثم تلتفت إلى باب الغرفة مرة أخرى لتطرقه ولكن لا تطرقه، تأبى يديها أن تطيعاها على ما تريد فعله. من خلفها كان يقف يوسف يشاهدها وهي على هذه الحالة، هو

أيضا لم ينم طوال الليل، قضى الليل بطوله أمام رسالة منى التي حملت الكثير من الألم الذي اعتصره بقوة وكأنه ينبهه لشيء، ظل طوال الليل يبكي وينعي ذكراه الراحلة التي ستحيا إلى الأبد رغم غيابها، راح يؤنب نفسه من جديد لرحيله عنها، وقتها سمع آذان الفجر فهم بالذهاب إلى المسجد ليصلي الفجر ثم حمل كتاب الله وجلس على هذه الأريكة المقابلة للصالة بالقرب من السلم وأخذ يقرأ بعض الآيات عسى أن يطمئن قلبه "ألا بذكر الله تطمئن القلوب."

وما إن أنهى ورده اليومي حتى ظهرت أمامه تمشي على أطراف أنامل قدميها متجهة إلى غرفته فثار فضوله عما يحدث فنهض ثم تواري سريعاً خلف الأريكة، ليراقب ما ستفعله، كان مندهشا مما يرى:

- هي حقا مرهقة شاحبة، تبدو عيناها متورمة وكأنها كانت تبكي طوال الليل، يا تري ما بك أيتها الصغيرة وماذا يحدث لك لا نعلمه ولماذا قد تذهبين إلى غرفتي الآن؟ ظل مختبئا حتى عادت إلى غرفتها وسمع صوت بابها يغلق، ثم ذهب إلى غرفته وهو حزين حائر لا يفهم شيئا

- ما بها؟ منذ أن جئت إلى هذا المنزل وأنا أراها زهرة رقيقة مشاكسة تضج حيوية ونشاط، تحاول أن تلفت نظري إليها بجمالها ورقتها ورجاحة عقلها، اهتمامها بأدق تفاصيلي، ارتدائها لألوان أحبها، حتى الأغاني التي أفضلها، تظل تشدوا بها أمامي ذهابا وإيابا وكأنها تعلمني أنها تحفظها، وكتبي القديمة التي صارت تحفظها أيضا عن ظهر قلب وتتحين الفرصة لتناقشني

بها، كيف لم الحظ من قبل أنها تفعل كل ما أفعل وتعشق كل ما أعشق، أذكر أول صباح جمعنا معا عندما توقفت لتلتقط أنفاسها وكأنني أحاصرها فأمنعها أن تتنفس، حديثها عن أنها تكاد تسمع شهيق والدتها وزفيرها في نبضاتي وجملتها الغامضة

التي لم أفهمها عندما قالت إن والدتها تحيا بمكان ما وأنها تنتظر أن يجمعهم سويا، لقد كانت تقصد قلبي، يا الله! لهذا بدت بالأمس حزينة بشدة عندما كانت تضع القهوة أمامي

وكأنها تقل لي أرجوك لا تفعل، هل أغرمت بي؟ حقا؟! ولكن متى؟ وهل من الممكن أن يحدث هذا الأمر؟ راح يحدث نفسه حائرا:

- هي صغيرة وأنا عمري ضعف عمرها، هل يعقل أن يحدث ما يحدث هذا؟ وماذا أفعل إذا كان الأمر حقيقي؟ ماهي إلا دقائق حتى استيقظ الجميع وسمع يوسف والدته تنادي:

- يا أمل

- نعم يا جدتي

- هيا يا عزيزتي فلنحضر الفطور. دقائق وعاد صوت والدته من جديد تطرق باب غرفته:

- يوسف استيقظ يا بني لنفطر سويا

خرج يوسف وجلسوا جميعا إلى المائدة كان ينتظر إليها وكأنه يراها للمرة الأولى بعين قلبه

– أنا أيضا أشعر بشيء ناحيتك ولكن أخاف أن أواجه نفسي به، وللمرة الأولى منذ أن عدت، أنا خائف. لم ترفع أمل عينها عن طبقها ولا مرة، تنظر والدة يوسف إلى والده وهي تترك من يدها كوب الماء وكأنها تنبهه إلى ما ستقول.

ثم تنظر إلى يوسف متسائلة،

– لم تقل لي ما رأيك في سلوى ابنة عمتك نبيلة؟ فنظر يوسف إلى أمل ليجدها تترك ما بيدها ثم تخبئ يديها خلف المائدة في محاولة منها ألا تظهر توترها، فأجابها بلامبالاة وهو يقصد أن يظهر وكأنه منشغل بتناول الطعام:

– من سلوى؟!

– سلوى يا يوسف التي زارتنا بالأمس للاطمئنان عليك

رد يوسف:

– آه، سلوى، ما بها؟

– انظر يا حاج أحمد ماذا يفعل ابنك، هو يستفزني نظر يوسف إلى أمل فوجد ابتسامة تشع من عيناها المتعبتين

– أجب أمك يا يوسف أنت تعلم ما تريد قوله

– أعلم يا والدي ولكن باختصار ليست سلوى ما أريد، أنا أريد شيئا يخطف روحي مني، أريد شمسا تضيء عتمتي التي طالما غرقت بها، ولن أسر عليكم الأمر يا أمي، أنا لم أكن أنتوي

الزواج أبدا، ولكن لسبب ما بعد أن عدت إلى هنا بلحظات قررت أن أعيد التفكير في هذا الموضوع مرة أخرى.

- حقا يا بني؟!

- حقا يا أمي.

فابتسمت والدته وهي تكاد لا تصدق ما تسمع منه:

- الآن اطمأن قلبي يا ولدي، ولن أتدخل في هذا الموضوع مرة أخرى فقرر على مهل واختر من تريد واعلم أن كل ما ستأمر به سيطاع.

قالتها بنبرة كانت تحمل كثيرا من التحدي لوالد يوسف، إذ كانت دائما ما تحمله ذنب ابنها وغيابه عنها كل هذه السنوات، قالتها بعنف متعمدة أن تنذره أن يقف بطريق ابنهم مرة ثانية.

نهض يوسف عن المائدة وقبّل رأس والدته:

- قريبا يا أمي، قريبا

هنا أنهىّ والده فطوره وهم بالانصراف إلى الحقل ثم التفت إلى يوسف يسأله:

- ما رأيك يا يوسف أن تذهب اليوم معي إلى الحقل؟

فأجابه يوسف:

- لا يا أبي، اذهب أنت الآن إلى عملك أما أنا فلدي موعد هام للغاية قمت بتأجيله أكثر من مرة، ولكن اليوم لابد وأن أنتهي منه.

فانصرف والده وغادر يوسف إلى مقصده

الفصل الثالث عشر

كانت زيارته إلى قبر منى هي أثقل ما كان يحمل على صدره من هموم، لربما هي أكثر الأفكار رعباً التي اختبأ منها من يوم أن وطأت قدميه بلدته من جديد، تلك الزيارة كانت هي النقطة الفاصلة بين حياتها ومماتها، لحظة الحقيقة التي ستمأ أركان عقله الرافض لفكرة أنها لم تعد تشاركه هواء الدنيا، لطالما راودته الأحلام السيئة التي تدور حول تلك اللحظة، لحظة أن يقف أمام قبر حب عمره ومنية روحه، ويلمس كومة الحجارة تلك التي تحيط بها لتأخذها إلى عالم لا يحتويهما سوياً، وقف صامتا ينظر إلى قبرها لا يجد كلمات قد تحمل وصفاً لما بداخله:

- جئتك يا منى لأجدك مجرد اسم نُقشت حروفه على شاهد قبر بارد، جئتك وأخيرا بقلب ميت وعينان نضبت عبراتهما، لأجدك داخل هذا اللحد الذي استحالت بيننا جدرانه، ليتك تسمعيني وتَفهميني وتُفهميني ما يحدث لي، لن أخفيك سرا يا

حبيبتي، لقد جئت إليك اليوم أشكو أمرا يؤلمني، جئتك لأرمي بين يديك ما يؤرقني كما كنت أفعل قديماً، جئت وأنا أعلم أنني سأعود خالي الوفاض، لن أسمعك ولن تهوني علي آلامي، ذكرانا تعذبني وتجلدني ولا تترك بداخلي شيئا يحيا، أنا أرفض واقع أنك تركتني وراءك ورحلتي هكذا ولكن إلى متى؟ أرشديني

كيف أحيا بدونك يا حبيبة روحي جفف يوسف دموعه ثم وضع زهور الريحان فوق قبر منى وقرأ لها ما تيسر من القرآن ثم انصرف، مر اليوم طويلا رتيبا لم يتحدث إلى أمل، كان بارد جدا حد الفتور، كانت أمل تلاحظه في استغراب:

- هو رفض الزواج من سلوى، إذن ما الذي حدث له؟ ولماذا لم يعد يحادثني أو ينظر إلى؟ هل فعلت شيئا خاطئا؟ لربما أدرك أنني أحاول أن ألفت نظره، لربما تأكد من أنه لا يبادلني نفس الشعور أو أنني لم أصل إلى مطلبي من الأساس، لا، أنا أعرف أنه يبادلني الشعور وأعرف أنه لن يتركني أعاني كثيرا، ولكني

أيضا سأتركه قليلا ليعود لي، بنفس اليقين الذي انتظرته به من قبل سنوات ثم عاد إلى، لابد أن أكون صبورة قليلا، بل كثيرا، فهو حلم يستحق الانتظار. كانت أمل تتحين أي فرصة للحديث معه عن أي شيء، كانت تصر بكل قوة أن تلفت نظره إليها، ولكنه كان يهرب منها ومن أي فرصة قد تجعل أعينهم تلتقي، شعر بخوف يجعله يرتجف كلما التقت عيناهما. وذات مساء وبينما هو جالس إلى مكتبه وجد كتابا قديما يحمل رائحة عطر أمل

- من أين جاء هذا الكتاب؟! أنا لا أذكره! ولم يحمل رائحتك

يا أمل؟ كان كتابا قديما ل (إبراهيم ناجي) كانت أمل قد وجدته خلف سريره، لربما كان قد سقط منه سهوا ثم نسيه ولم يتذكر أنه سقط هنا، عثرت عليه وهي تنقب بالغرفة كما تعودت، وجدته مكسوا بالغبار وخيوط العنكبوت تحيط به بل وتسكن بين صفحاته، فأخذته ونظفته وعطرته بعطرها الهادئ ثم وضعته على مكتبه، وأخبرته أن صديقه قادم.

- اصمد أكثر أيها الكتاب فلربما أحتاج إليك يوم أن يعود. وكأنها تعلم أنه سيكن يوما دليل مرشداً لقلبه الحائر، فالتقط يوسف الكتاب وما إن فتحه حتى وجد نفسه أمام رائعة إبراهيم ناجي قصيدة "في ظلال الصمت فأخذ يقرأ وكأن الأبيات موجهة إليه بل وكأن ناجي كان قد نظم تلك الأبيات خصيصا لهذا اليوم، غاص بالكتاب واستسلم في هدوء إلى رسالة القدر

ها أنا عُدت إلى حيث التقينا
في مكانٍ رفرفَت فيه السعادة
وبه قدٍ رفرف الصمت علينا
إن َ في صمت الحبيبين عباده
رب لَحن قَص ِ في خاطرنا
قصةَ الساري الَذي غَنّى سهاده
وكأَّن َ الصمت منهُ واحةٌ
هيّأَت من عُشبِها الرطب وساده
صمت ّ السهل ولكن أقبَلَت
من ثـَنَايا السهل أصداءٌ بعيده
كلُ لحنٍ في هدوءٍ شاملٍ

تشتهي النفسَ به أن تستعيده
حتى وصل إلى:

لم أكن أطمع أن ترحمني
بعد أن قَضْيت في الوجد السنينا.
لم أكنُ أطمع أَن تُضمَر لي
آسياً يـُبرئُ لِي الجرح الدفينا
لم أكن أعلمَ يا ليل الأسى
أن في جْنحَك لي فجراً جنينا.
ثم وضع الكتاب جانبا وراح يتساءل:

- هل هذه هي الإجابة على سؤالي؟ هل هذا ما يحدث لي؟ أين المنطق والعقل اللذان طالما تعاملت مع حياتي بهم؟ وكيف أسرتني عيناها؟ لماذا أسمع داخلي صوتا يخبرني أنها فجر ليلي الذي طالما فقدت الأمل في أن يكن له فجرا؟ وهل هي مصادفة

أن يكن اسمها أمل؟ هل هي فجري الجنين؟ هل ابحث بها عن بقايا مني؟ هل لا زال شيء داخلي ينعي أطلالي القديمة؟ ولكن لا، ما يحدث لي شيء مختلف، لقد قفزت إلى كياني وتملكتني قبل أن أشتم بها رائحة الماضي وقبل حتى أن أعرف من تكون، لقد رأيت بعينيها ما حفر في قلبي بجزء من الثانية، حقا في الأيام الماضية كنت غارقا بحزني الذي سأظل غارقا به ولأبد ولكن إذا ما عدت بعقلي إلى يوم أن عدت وجدتها تقف عند جذع الكافور لتختطفني، من أول ثانية أراها بها شعرت بأن شمسا تلوح بأفق حياتي لتتحداني وتخطفني مني عنوة وتخبرني

أنـه هنـاك مـا قـد يضمـد قلبـي، ربمـا الذكـرى والماضـي والحنيـن وجرحي الغائر كانا ستاراً حال بيني وبين ما حدث لي من الوهلة الأولى، أيا كان ما يحدث فأنا لابد أن أمهل نفسي وقتا حتى وإن كانـت عيناهـا تناديني، لابـد أن أحتـرس منهـا أيضـا.

فعينـا تلـك الفتـاه الصغيـرة البريئـة ذكيـة جـدا، لقـد رأيتهمـا تتحدياني، ورأيت لأول مرة من ضعف قلبي ما يقلقني بشدة، وبرأيي هو لن ينصفني يوما إذا أقحمت نفسي بشيء دون تفكير، لا أدري إلى أين أتجه بشراعي يا فاتنتي الصغيرة، فأنت لم تتركي لي سبيلا للنجاة، اللهم يا رب السماوات والأرض، رب كل شيء ومليكه رتب كل هذه الفوضى داخلي وارشدني لما هو خير لي.

مـرت أيـام ونبتـة داخـل يوسـف تنمـو بسـرعة مخيفـة تؤرقـه، لا يستطيع أن يوقفهـا بـل وأحيانـا يجـد نفسـه راكضـا إليهـا، وأيـام أخرى خائفا مترددا على غير العادة، وبينما هو غارق في التفكير وبينما حل صباح لم يهنأ بدقيقة واحدة في ليلة إذا بصوتها يأتي مـن الخـارج:

- جدتي صباح الخير. فنهـض مسـرعا ليفتـح بـاب غرفتـه ولكـن توقـف فجـأة وراح يحـدث نفسـه:

- اهـدأ يـا يوسـف فلترتـدي لباسـا أنيقـا ومشـط شـعرك لا يصـح أن تـراك الفتـاة على هـذه الحالـة، ثـم اهـدأ حتـى لا تبـدو أمامهـا

مرتبـكا، مـاذا إذا التقـت أعينكـم؟ فلتحكـم رباطـة جأشـك، أنـت لسـت مراهـق. ارتـدي يوسـف ملابسـه الأنيقـة كالعـادة ومشـط شعره سريعا وكأنـه ذاهـب إلـى مهمـة ثـم وضـع الكثيـر مـن عطـره

المفضل، ثم راح يتنفس بعمق عدة مرات وفتح الباب، كانت لا تزال تحضر الإفطار بينما عيناها معلقتان على باب غرفته، وما إن خرج حتى رآها أمامه مشرقه كعادتها، راح يحدث نفسه:

- سبحان الخالق يا لجمالك ويالك من حسناء سرقتي قلبي الميت وأعدته إلى الحياة في ثانية ويا لهاتين العينان اللامعتان اللتين تنبضان ذكاءا وبراءة وحياة، هل أنت من عدت من غربتي

لأجلها؟ ربما أنت عوضِ الأيام عن سنواتي الضائعة، وربما لست هذا ولا ذاك، ولكن لم يحدثني قلبي الميت عنك؟ ولم

أشعر بقلبي ينبض عندما أفكر فيك؟ لا تشبهين أمك أبداً، لم ترثي منها شيئا، إذن لم يحدث لي هذا؟ أنا في حيرة من أمري

لابد أن بك سر، في حضورك أشعر وكأن الحياة تعاود اللعب معي مجددا، يالها من حياة غريبة الأطوار تفاجئك بصدمات لا تتوقعها، أحيانا تعبر بك الحواجز والأسوار وفي لحظة تقضي على عهود معك كانت قطعتها، اليوم سأذهب مجددا لزيارة قبر

منى وأسألها علها تجيبني في أحلامي للمرة الثانية يذهب يوسف إلى قبر منى طالبا يد العون، يرجو هداية من تيه ضربة فجأة وكأنه إعصار أتاه على حين غرة.

- اليوم جئتك لترشديني ماذا أفعل مجددا؟ ولكن هذه المرة جئتك أشكو لكِ ابنتك يا منى، قطعة منك تعذبني، لا أدري

ربما تعذبني روحك بها، وربما جزء منك تركته بها أبى أن تتوقف أيامي وينتهي بي العمر يوم إن غادرتي الحياة كأنها تعود بي إلى

الماضي ثم تمسك بيدي لترشدني أنه لا زالت هناك حياة يمكن أن نحياها بلا قيود، بلا أغلال، وبلا سخط على ما مضى، فأحيانا أنساق إليها كغريق أرهقته الأمواج ومل المقاومة، فلم يجد له مفر من أن يرتمي بأحضانها طوعا لا يأبه بشيء.

ولكن يعذبني ضميري، ولا أعلم إن كنت محقاً في ما تستهوي مشاعري أم أنني مذنب مخطئ، أفقد الرشاد، وللمرة الأولى أفتقد حكمتي، أخاف أن أظل أتعبد بمحرابها ثم أستفيق ذات صباح لأجدها قد سئمت طريقي الذي تحفه أشجار الخريف بينما لم تتفتح زهور ربيعها، صغيرة هي لم تنبت براعمها بعد وقد تكون لا تدرك عواقب ما تجتذبني إليه معها، منى!

فلتجيبيني الآن ماذا افعل؟

اهدي تيهي وشتاتي وأرقي وآلامي وتأنيب الضمير كما كنت تفعلين قديماً، أراها تتألم فأشعر بآلامها بين أضلعي، أرى عيناها تتوسل فأكاد أركع أمام قدميها كيلا تعذبني بنظراتها، منى أنا أحب ابنتك كثيراً كثيراً إلى حد أنني صرت أتنفسها، هل تحزنين لسماع هذا يا منى أم تسعدين؟ رباه ليته استطاع أهل القبور أن يخبرونا عن أحوالهم!

ليتهم يجيبونا على أسئلتنا! ليتنا نعلم هل يستطيعون حقا الشعور بنا! عاد يوسف إلى البيت ولكن لم يدخل، يخشى مزيدا من التيه، فجلس إلى جوار جذع الكافور الحزين وأسند ظهره ورفع رأسه محدقا بالسماء شارد الذهن

– أحبها أنا أيضا، لا أعلم كيف، ولا أعلم متى، ولا اعلم لم،

كل ما أعلمه أني أصبحت كفروع شجرة في مهب الريح لا أدرك ما يجب أن أفعل، أحبها وأخاف عليها من نفسي، وأخشى أن تكرهني يوما، أخشى أن يكن ما يحدث لها مجرد مشاعر مراهقة أو انبهار وقتي وليد اللحظة، أخشى أن أكون أنا من انجرف خلف بقايا تجددت رائحتها بأنفي يوم أن عدت إلى هذا المكان، ارشديني يا منى!

فهنا جلسنا أنا وأنت كثيرا، ولطالما كنت أعود إليك عندما أشعر بالحيرة في أمر ما، أنت اليوم لست هنا ولكني أشعر بروحك من حولي، رحلت عني ولكنك تركت لي قطعة منكِ كأنك تقصدت أن تظلي تسكنيني إلى الأبد.

أجيبيني ماذا أفعل الآن؟

تركت لي قطعة منك يا منى وكأنك تتعمدين أن تكملي من حيث توقفنا، وكأنك تتركين أثرك

بكل ما حملته لي من عبق الحنين والاشتياق ليمتلكني لحظة أن أضع قدمي بمكان جمعنا يوماً، تخرج والدته لتجده جالساً هكذا:

- يوسف؟! ما الذي يجلسك بالشمس الحارقة هذه يا بني؟! وما الذي يشغل بالك إلى هذا الحد؟ منذ عدة أيام وأنت شارد

على غير عادتك. فانتبه لوجود والدته فهم بإخفاء عبراته الصامتة:

- لاشيء يا أمي، أنا فقط أفكر في أمر ما.

- لا أحزنك الله يوما يا بني، يكفيك حزناً وشتاتاً. فنظر إليها

يوسف بحزن وهو لا يدري هل يحدثها عما يفكر لربما وجد عندها الحل.. لا لن أخبرها، سيساعدني الله ويهديني، لربما إذا تحدثت إلى أمي الآن زاد الأمر سوءاً

- هيا فلنذهب إلى الداخل يا بني، أخشى عليك أن تصيبك أشعة الشمس الحارقة بمكروه.

الفصل الرابع عشر

مر يوم آخر ثقيلا كما مرت الأيام التي سبقته:

- لم أعد أحتمل غيابها، لم أعد أحتمل أن تمر الدقائق بلا رؤياها، الليلة عندما سنجتمع أمام التلفاز سأسترق النظر إليها ولو مرة واحدة فلقد اشتاقت إليها روحي وفي المساء وبينما كان يجلس هو ووالدته ووالده كانت قد غابت أمل عن المجلس

- أين أمل يا أمي؟

- لا تقلق يا حبيبي، لقد ذهبت لتحضر بعض الحلوي ثم ستأتي. وما هي إلا لحظات حتى ظهرت أمامه بجمالها الأخاذ، تلمع عيناها وكأن بكل منهما قمر مضيء يأسر روحه عنوة. فأشاح بناظريه بعيدا عنها خوفا من أن ينفضح أمره، كانت

محاولة فاشلة منه لإخفاء ما يتأجج داخله من حريق يجلده، كانت حقا محاولة بائسة، لقد كانت مجرد مضيعةُ للحظات

أغلى من أن تُهدر في صمت جامد قاسي لا جدوي منه:

- أعي أني أجاهد روحي الغارقة في عشقك، لا أعلم إلى متى ستدوم تلك الحرب، ولكن ما أعلمه جيدا هو أنه قريبا سوف أسقط أمامك راكعاً، مستجدياً راجياً من عينيك العفو معشوقتي الصغيرة.. نظرت إليه بشفقة وهي في حيرة من أمرها، فهي لم

تعهده سوى فارس مغوار لا يهاب شيئاً

- اعلم عزيزي أنك تحارب، أعلم أنك تجاهد عبثا أن تتجاهلني، أعلم أن بيننا ألف ألف سد منيع، ولكن نعلم أنا وأنت أن كلمة واحدة منك تسقطهم، تحدث إلى يا رحيق نبضي، ويا رفيق كل زفير خرج من بين جوارحي باحثا عنك في الأجواء بلا أمل، اليوم عدت وعاد الأمل، اليوم أنت أمامي، أراك وأشعر بك، لقد عدت إلى بعالم جديد طالما شيدته في مخيلتي وحاولت ترجمته على أوراقي بلا أمل، عابثة غير مهتمة ما إذا كان سيتحقق يوما، الآن وبعودتك تحقق، فلم كل هذا الهرب الآن؟ لم تهرب مني وانت بين يداي؟ ولمّ تتجاهلني وقد امتلكتني لحظة أن تعانقت أصابع يدينا للمرة الأولى، أحبك، فلا تعاقبني على هذا، فحبنا إذا كان خطيئة تستحق العقاب فلنعاقب أنا وأنت سويا، إذا كان حبنا جريمة! إذن فهو جريمة مشتركة فلولا عيناك ما تجرأت عيناي.

ساد صمت على المكان لبرهة وبدا لوالديه وكأن شيئا غير مألوف يحدث، فلم يعتد يوسف أن يتجاهل وجود أمل هكذا، بل كان دائما ما يحاول أن يستفزها أو يخلق معها جدالا من باب المزاح فكانت تبادله المزاح سعيدة فتعلو ضحكاتهم فيسعد قلب والداه عندما يلمحان تلك الابتسامة على وجهه الحزين، لم يكن يخف عن الجميع ضحك أمل وضجيجها الذي كانت ترتج له أركان البيت في كل جلسة كانت تحوي يوسف، لم يكن هذا الأمر سراً، ولكنه أيضا لم يدرك والديه حقيقة ما يحدث، دخلت أمل وجلست إلى هذا الكرسي المقابل لكرسي يوسف. كانت جلسة باردة لمساء قارس البرودة، ولربما كان لهيب بقلبيهما ما يجعل الهواء ساخنا متأججاً. مر الوقت بطيئا وكأنه سكينا غير حاد

يمر على عنق طير يلتقط آخر أنفاسه بالحياة عندما هم يوسف بالانصراف

- أستأذنكم، سأخلد للنوم الآن، أريد النهوض باكراً. قالها يوسف بصوت شبه يائس، لا مبالي لنظرات أمل المستجدية

له طوال ساعتين.

- اذهب يا بني، أحلاما سعيدة فقبل يوسف رأس والدته ويد والده ثم التفت إلى أمل:

- تصبحين على خير يا أمل. فنظرت إليه بحزن ثم ردت:

- تصبح على سعادة وهدي وراحة بال. انصرف يوسف إلى غرفته وتبعته أمل بعينيها وكأنها تستجديه

العودة ثانيا، وكأنها لا تصدق أنه يفعل هذا، ثم استأذنت جدتها:

-ائذني لي جدتي بالانصراف أنا أيضا، فإني أعاني من الدوار

وأريد الخلود إلى النوم. كان بصوتها نبرة حزن وألم تغلبا على نعومة وجمال صوتها العذب المرح، بدت عيناها حقا مرهقتين:

- اذهبي يا أمل، فلتصبحين على سعادة وهدي وراحة بال. نظرت إليها أمل وكأنها تتساءل

- لم تقول هذا؟ ولم انتقت نفس كلماتي التي أجبت بها يوسف؟ هل تعمدت ذلك؟ لم تنطق بشي اكتفت فقط برد عادي:

- وأنت من أهل الخير جدتي كانت والدة يوسف تراقب ما يحدث بألف علامة استفهام وتعجب، أدركت أن شيئا هنا يحدث ولكن كذبت ما جال لبرهة في ذهنها

- لم لا، ولكن ربما أمل منبهرة بشخصية يوسف الغامضة فقط مجرد انبهار مؤقت، هي كثيرا ما سألت عنه، كثيرا ما استرقت النظر داخل تلك الغرفة المغلقة منذ سنوات، بل وقامت عدة مرات باختلاس مفتاحها من بين طيات ملابسي حتى تستطيع الولوج إليها، كنت أراها في كل مرة تفعل هذا ولكني كنت أتركها وأقول لنفسي ربما فضول لا أكثر. أعلم أنها مجرد فتاة صغيرة انبهرت بما تسمع وأخذها الفضول لاستكشاف سر طالما ظل حبيس جدران تلك الغرفة الخزينة، المظلمة دائما، المبهمة، لربما أثارها باب مغلق، لربما ما شغلها هو حب الاستطلاع لا

أكثر. ولكن هل لهذا علاقة بما يحدث الآن؟

صغيرتي حزينة، وطفلي العائد من وراء ستائر الماضي حزين أيضا، بل ويتجاهلها

عن عمد، ألهذا مدلول؟ لا، لربما أنا أتخيل، ثم راحت تهز رأسها وكأنها تقاوم تلك الأفكار:

- أستغفرك ربي وأتوب إليك

ثم التفتت إلى زوجها فوجدته قد غط في نومه وهو جالس

- أبا يوسف، أبا يوسف

- ماذا؟ هل غفيت؟

- نعم يا عزيزي هيا بنا لنأوي إلى فراشنا. جلست أمل فوق سريرها تضم ساقيها إلى صدرها بكلتا ذراعيها تدفن وجهها بين ركبتيها، كان ما يحويه صدرها فوق التحمل وفوق الصبر، بداخلها جمر يؤرقها ويحرقها، شعرت أنها تبكي بلا دموع، تحاول إخفاء ما بها ولا تفهم لم يحدث هذا، بهذا

الوقت كانت أعظم أمنياتها أن تعلم بم يفكر، وكيف يفكر بها، وماذا يسر لها في نفسه.

- ليتك لم تعد! قديماً كانت كلما أخذها الحنين إلى تلك الشخصية التي سكنتها قبل أن تراها، تذهب إلى غرفته خلسة لتبحث عنه مرارا وتكرارا في غرفته، عن أي شيء يحوي رائحته، أشعاره، خواطره، أو حتى بعض الكلمات على هوامش صفحات كتاب قديم، كان جل ما تتمناه هو أن تقضي دقائق قليلة بين أشياءه المتروكة المهجورة التي لا زالت تنتظره وتشتاق إليه، كانت تستمتع كثيرا وهي تلمس موضع يديه على مكتبه القديم.

هكذا هو الماضي مهما مر عليه من الزمان ومهما تيقن الجميع من رحيله يبقي به دماء يتحين الفرصة فيعود أقوى وأشرس من ذي قبل، يعود من خلال ورده مجففه بين طيات كتاب قديم أو علامة تركها كوب قهوة عندما تسربت قطرة منه إلى الخارج فحفر أثره على مكتب وكأنه نقش فرعوني داخل معبد تتحدي معالمه الزمان، يظل في مكان بعيداً مختبئا داخل القلب لا تصل إليه يد الموت..

فبمجرد النظر إليه تتجدد روح الحاضر به، ما يحيا بالقلب لا يقتله شيء أبدا، سيظل ماضي كتبت له الحياه دائما. ظلت على هذه الحالة طوال الليل حتى غالبها النعاس، فغلبها وتمكن منها أخيرا وبعد أرق أيام وليالي.

الفصل الخامس عشر

استيقظت أمل لتجد أنها نامت وكأن أعواما مرت، فتحت شباك غرفتها فإذا بالشمس في كبد السماء

– رباه، هل نمت كل هذا حقا؟ ثم أسرعت إلى حمامها وبدلت ثيابها وخرجت إلى البيت فلم تجد به أحدا فهرعت إلى الخارج فإذا بوالدة يوسف تجلس إلى هذه الأريكة القديمة تشرب كوباً من الشاي:

– صباح الخير يا جدتي. فالتفتت إليها وكأنها تنتظرها بشوق:

– صباح السعادة يا قمري، هل نمت جيداً؟ لملمت أمل أطراف ثوبها ثم جلست إلى جوارها:

– لم تركتني أنام كل هذا؟ فتنظر إليها بعيون حانية:

– تعمدت أن أتركك تستيقظين وحدك حبيبتي، فأنت بالأمس بدا عليك الإرهاق، كيف أصبحتي اليوم؟

– أفضل الحمد لله. ثم نظرت أمل هنا وهناك

– لقد ذهب جدك إلى الحقل باكرا يا حبيبتي ويوسف أخبرني أنه سيذهب لينجز بعض المهام، أليس هما من تبحثين عنهم حولك الآن

فتلعثمت أمل قليلا ثم أجابت:

- نعم لقد اعتدت أن أمشي بجوار جدي حتى أودعه عند الباب كل صباح، اليوم سرقني النوم منه. فنظرت إليها والدة يوسف بتمني محدثة نفسها:

- ليت ما يجول بخاطري مجرد وهم! ليتني أهذي! أمل الصغيرة تحب ابني؟! أنا أشفق عليها كثيرا، ابني حقا شاب لا يعوض تتمناه كل فتيات البلدة، ولكن أمل ذات قلب غض صغير لا أظن أنها ستقوى على تضميد ما بقلبك يا يوسف، أخاف أيضا أن تظلمها يا ولدي، ماذا إذا كنت تحب بها فقط شيء من منى؟ ولكن هي تأبه لك، هي تبحث عنك، هي تتتبعك وتتحداك وتستجديك بعينيها الجميلتين، لربما هي تفتنك يا ولدي عن عمد أو حتى عن غير عمد، أراك فُتنت يا حبيبي

وقضي الأمر. فاعتدلت بجلستها ثم نظرت إلى أمل:

- أمل حبيبتي هلا نلعب سويا؟

فنظرت إليها أمل مبتسمة:

- نلعب؟!

- ولم لا يا حبيبتي، مر وقت طويل جدا منذ ان لعبنا سويا آخر مرة فاتسعت ابتسامة أمل ثم أجابتها بسعادة:

- حسنا فلنلعب. فضحكت والدة يوسف ثم أمسكت بيد أمل الرقيقة الصغيرة بين راحتيها:

– فلنبدأ اللعبة إذن، أنا سألقي عليك سؤال يا صغيرتي وأريد منك جوابا بعدة أحرف، ولكن قبل هذا، أريدك أن تعلمي قواعد اللعبة جيدا، هذه اللعبة تتكون من سؤال واحد فقط، إذا

امتنعت عن الرد تعتبر اللعبة لم تحدث وكأننا لم نقم بها، مهما كانت إجابتك هي في صالحك، فأنا إلى جوارك أنت يا قرة عيني، واعلمي أنني أنا من ربيتك وألبستك وأطعمتك وجعلتك

أميرة تخشى الشمس أن تنظر إليها، إذن فلا داعي أن تخجلي مني أبداً. هنا شعرت أمل بأن أمراً جللا يقترب منها مرتدياً ثوب تلك اللعبة، ولربما ليست لعبة

– ابتلعت لعابها بصعوبة ثم نطقت بصوت منخفض وكأنها تحارب لسانها وأحبالها الصوتية لتقوى على الحراك والنطق.

– تفضلي! فنظرت إلى عينيها مباشرتا ثم قالت:

– عن ماذا تتحدث عيناكم أنت ويوسف؟ وقعت الكلمات كصاعقة ارتجت لها كل خلايا جسد أمل، وراحت ترتجف لا تدري خوفا أو بردا أو حريقا، لا تكاد تدرك ما يحدث، فشدت على يدها والدة يوسف

– لم ترتجفين هكذا يا عمري؟ ما بك؟ راحت أمل تبكي وتبكي فقامت والدة يوسف من مجلسها واحتضنت أمل إلى صدرها:

– بنيتي الصغيرة، حبيبتي وعيناي اللذان أرى بهما الحياة، ما بك يا عمري وما الذي يبكيك؟ ماذا فعل لك يوسف ليجعلك تبكين بهذه الحرقة؟ وماذا فعل لك ليجعلك حزينة إلى هذا

الحـد؟ مـن أطفـأ ضحكتـك؟ فنظرت أمل إليها بحزن:

- أنـا جدتـي مـن فعلـت هـذا بنفسـي، هـو لـم يفعـل شـيء أبـدا، أنـا مـن تسـرعت كثيـرا، أنـا مـن غرسـت تلـك البـذرة بداخلـي باكـرا جـدا، أنـا يـا جدتـي مـن ألقيـت بنفسـي إلـى الهاويـة، ولا أعلـم متـى

وكيـف وهـل مـن الممكـن أن أعـود فأمسكت بوجه أمل بين يديها ونظـرت إليهـا بكل عطـف وحنـان

- أنـت تحبينـه إذا؟ فأجابتهـا أمـل بصـوت بـاك ووجـه غـارق بالدمـوع وكأنهـا شـلال يخفـي جمـال عينيهـا حتـى يغلـب اللـون الأحمـر علـى هـذا المحيـط الأزرق اللامـع بهمـا

- كثيرا يا جدتي، كثيرا جدا.

- وهو؟

- هـو يتجاهلنـي، هـو يهملنـي، هـو يذبـل أزهـاري عـن عمـد ولا أدري لمـاذا.

- لا يـا عزيزتـي أنـا سـألتك وهـو؟ قصـدت بهـا أن افهـم منـك بمـاذا تشـعرين أنـه يكـن لـك؟

- أشعر به يتنفسني يا جدتي، أقسم لك أنه يتنفسني.

- إذن لم تبكين الآن؟ أكملت حديثها وهي لا زالت تبكي تكاد الكلمات تخرج بشكل غير مفهوم من شدة بكاءها:

- لا أعلـم هـل مـا يحـدث صوابـا أم خطـأ؟ أرجـوك سـامحيني يـا

جدتي فأنا حقا لم اقصد أيا من هذا فمدت يدها لتزيح دموعها عن وجهها ثم ضمتها إلى صدرها بشدة:

- لا تقلقي يا عزيزتي فما حدث لم يكن أحدكم ليرتب له، ما حدث بينكم هو ترتيب الله لأمور، وأن أمر الله كله خير، الآن

ادخلي لتغسلي وجهك قبل أن يراك أحدهم بهذا الحزن الذي لا يليق بوجهك الجميل هذا، بينما أعد لك إفطارك اللذيذ، ولا

تحملي هما، من الآن أنت ألقيت لي بكل همومك، وأعاهدك أن أحملها عنك ولا أترك شيئا يحزنك أبدا، فلتتركي لي البقية.

ابتسمت أمل أخيرا بعينين دامعتين، هي تعرف أن الأمر ليس سهلا، ولكنها اطمأنت لما حدث الآن، فأخيرا ظهر ما بينهما

للنور، ولو كانت فقط كلمات ووعد قد يكون غير قابل للتنفيذ فهذا يكفيها. كلمات قالتها والدة يوسف وهي لا تعلم وجهتها بعد، لا تدري من أين ستبدأ والي أي مآل ستؤول الأمور، كانت

لا تعلم ماذا تفعل ولا تدري هل ستستطيع تحقيق ما تعهدت به لأمل، راحت تعد طعام الإفطار لطفلتها الحزينة الهائمة المنزوية على نفسها لأيام بلا طعام حتى شحبت ملامحها وانطفأت شمس وجهها وتحول من قمر باسم سعيد إلى ليل كئيب لا روح فيه، كان يوسف طوال الوقت حائرا بين أفكاره

- إلى متى سنظل هكذا؟ هل أسافر إلى الخارج ثانية؟ هل اهرب لأكسر قلبها هي الأخرى؟ لم كل هذه الحيرة والخوف؟ أخاف أن أكون أناني أو أن أصير ظالم، لربما خوفي الأكبر هو

أن تكرهني نبتتي الصغيرة التي نبتت بقلبي الميت الذي أحيته من جديد وأهدتني الحياة مرة أخرى بعد أن كنت أضعتها في صحراء أيامي الموحشة.

وصل إلى البيت عابسا ليجد والدته تعد طعام الغداء وما إن شعرت بخطواته حتى هرولت لتلحق به في غرفته:

- تولي عني يا أمل إتمام الغداء، أنا سأذهب قليلا. طرقت الأم الحنون باب غرفته، فأذن لها بالدخول فدخلت ثم جلست إلى سريره، كان يقف إلى جوار نافذته يتأمل أشجار الفاكهة التي طالما حملت ذكريات سعيدة أصبحت الآن سهاما تدك القلب دكا وتعتصره:

- يوسف حبيبي ماذا يحزنك؟ فأجابها باستغراب:

- أنا؟! لا يا أمي، أنا لست حزينا، أنا فقط أفكر في أمر يشغلني.

- وماهو هذا الأمر يا صغيري؟ فأجابها مداعبا:

- لا تشغلي رأسك الجميلة تلك يا أمي، فأنا شخص لدي الكثير من الهموم التي تذوقت منها ما يكفي، أريحي قلبك.

- إذن كما تحب، لقد جئت الآن أريد مشورتك في أمر يا ولدي.

- بالطبع يا أمي، تفضلي!

- بما أنك فرد من العائلة فلابد أن تبدي رأيك في أمر ما، لقد

جاء أحدهم لخطبة أمل. التفت إليها يوسف بفزع واندهاش:

- من؟! لا، ليس مجدداً.. نظرت إليه أمه ثم سألته:

- ماذا؟ مجدداً! ومن كان سابقاً؟ فابتسم يوسف لوالدته وإذا بها مبتسمة هي أيضا:

- أمي، هذه مزحة أليس كذلك؟ تضعيني باختبار كما كنت

تفعلين معي قديما؟ فضحكت والدته بصوت مرتفع وضمته إلى صدرها:

- ولا زلت كما أنت يا صغيري لم تتغير، هي نفس براءتك القديمة وهو نفس انفعالك الذي يوشي لي بأسرارك. فجلس يوسف متنفسا الصعداء:

- آه يا أمي، لم تفعلين بي هذا دوما؟

ضحكت والدته بشدة؟

- لم أكن لأصل إلى مبتغاي لو لم أنفذ تلك الخدعة، تحبها يا ولدي، تحبها كثيرا وهي أيضا، فلم إذن تعذب نفسك وتعذبها؟

- أحبها يا أمي ولكن الزمن، سنوات عمري هي غريمي الأول الذي طالما وقف حائلا بيني وبين سعادتي، فقديما كنت أصغر من اللازم والآن أنا أكبر من اللازم.

- لا يا ولدي، ليست سنوات عمرك هي العدو، عدوك هو العادات والتقاليد وأحاديث الناس يا حبيبي، ماذا كان سيحدث

لو تزوجت منى وضربت بكلامهم عرض الحائط؟

لم أكن لأحرم منك سنوات، ولم تكن لتتجرع كل هذا الحزن والأسى، أتظن أنهم يستحقون منك كل هذا التقدير لدرجة أن يموت قلبك خوفاً من كلامهم مرتين، مرة عنوة وأخرى بكامل إرادتك، لا يا ولدي، اسمح لي أن أخبرك أن قلبك لا يستحق هذا. نظر إليها يوسف وكأنه اطمأن كثيرا بكلماتها الحنونة.

- إذن ماذا أفعل يا أمي؟ أرشديني!

- تزوجها يا بني

- ولكن ماذا إذا كان قرارا خاطئا؟

- لم تقدر الشر؟ تفاءل خيرا وأحسن الظن بالله العلي العظيم، حبيبي أنت إذا تركتها ستذبل وتموت على غصنها، هي تحبك كثيرا يا بني، أرجوك لا تخذلها، حقا هي لا زالت صغيرة بعد، ولكنها أيضا كبيرة بعقلها وحكمتها وذكائها، ستكونان زوجين سعيدين، كل منكما يحمل الآخر بقلبه كطوق نجاة.

- هل تحدثت معها أمي؟

فنظرت إليه بابتسامة هادئة:

- كل ما حفر بقلبك يا عمري هو تماما ما بقلبها الصغير البريء، الآن لم يتبق سوى إخبار والدك، وياله من أمر جلل. ولكن أزح عن رأسك الآن كل هذه الأفكار الحزينة واستمتع بأيامك السعيدة القادمة، وأمر والدك هذا اتركه لي

- لا يـا أمـي اتركـي لـي أنـا تلـك المواجهـة، أنـا احـق بهـا مـن الجميـع.

- كما تحب يا بني، أنا سأخطو معك بأي طريق تكن بنهايته سعادتك وسعادة أمل.

- أشكرك يا أمي.

الفصل السادس عشر

انصرفت عائشة مبتسمة تبدو أمام يوسف سعيدة، ولكن ما إن اختلت بنفسها وأغلقت باب غرفتها خلفها حتى اختفت ابتسامتها

-استغفرك ربي وأتوب إليك، كيف يعقل أن هذا يحدث؟ يوسف يحب ابنة منى التي ربيناها وتعهدنا بأن نجعلها سعيدة دائما. ثم تسترجع ذكريات هذا اليوم العصيب عندما توفي إبراهيم إثر سكته قلبية منكسرا حزينا لفراق منى، لا زالت تذكره حين دخل

الرجال يحملونه وبأعينهم صدمة شحبت ملامحهم، في البداية ظن الجميع أنه مغشي عليه، حتى أكد لهم الطبيب خبر وفاته،

تذكر أن ثريا زوجته وضعت يدها على صدره فكان هادئا خامداً بلا روح، سقط بينما كان يراقب العاملين بالأرض الزراعية، سقط

بلا حراك وكأن جبل شامخ سقط، واختلت لسقوطه كل موازين

الحياة بهذا البيت الحزين، شاخ أحمد من الحزن على أخيه وكأن الحزن أضاف لعمره سنوات، لم تستطع ثريا أيضا أن تحيا بدونه فمرضت مرضا شديدا أوهنها وجعلها طريحة الفراش، عامين لم تهنأ ثريا بيوم واحد، تتمنى الموت بكل لحظة تمر عليها، تذكر

عائشة أنه ذات ليلة دخلت لتعطيها الدواء فوجدتها تتصبب عرقا فهمت لتعطيها قليل من الماء فشربت ثريا ثم استلقت مرة أخرى على مخدتها ثم التقطت أنفاسها بألم وأمسكت بيد عائشة بقوة وإحكام:

- اجلسي يا عائشة واسمعي منى كلماتي الأخيرة

- لا تقولي هذا يا ثريا ولا تتحدثي كثيرا فيزيد تعبك

- أرجوك فلتسمعيني فقط، لقد وضعت بيديك أمانة أرجوك احفظيها، أمل هي قطعة من كل واحد منا، هي قرة أعيننا، هي من صالحنا بها الزمان، ولكن أبت الأقدار أن تمهلنا حتى نرى في سعادتها العوض عن سعادة والدتها التي كسرناها بعجرفتنا

وجهلنا، ولربما ما يحدث لنا هو ذنب من كسرنا قلوبهم البريئة. أو كما قالتها لي منى يوما (لعنة الغدر) أنا استودعها الله في ودائعه فإن عنده لا تضيع الودائع، وأتركها بين يديك يا عائشة، اجعليها سعيدة، أرجوك عديني أن تحافظي على سعادة أمل مهما كلفك الأمر ومهما كانت التضحيات.

- أعدك يا ثريا

- الحمد لله، الآن أنا مرتاحة حقا، لا تحزني لفراقي يا عائشة فاليوم سأقابل إبراهيم ومنى ونعيش سويا في جنة الرحمن إن شاء الله. ثم تغلق ثريا عينيها إلى الأبد بعد أن تنطق الشهادتين. تنهدت عائشه بعينين دامعتان:

- يا الله وكأنه يوم أمس، لم يمض يوما يا ثريا لم أذكرك وأدعو

لك فيه، اللهم اغفر لهم وارحمهم جميعا، أمل، يا لها من مسئوليه على عاتقي. ثم نهضت عائشة وذهبت لتتوضأ وتصلي ركعتين وتدعو الله أن يلهمها الصواب، في الصباح كان البيت هادئا كعادته، ذهب كل إلى عمله، وعلى الأريكة القديمة جلست أمل تكتب شيئا، كانت منشغلة جدا بالكتابة حتى أنها لم تشعر بالزمان والمكان، ولكنها وفجأة أحست به يطالعها فرفعت عينيها عن ورقاتها فإذا بيوسف يقف أمامها مباشرة.

- صباح الخير يا أمل! فتمالكت نفسها وراحت تلملم أوراقها وأقلامها وردت بصوت كله ثقة يتزين بقليل من الشجن والعناد:

- صباح النور، لم لست بالحقل مع جدي كالعادة؟

- لا اليوم قررت أن افعل شيئا مختلفا. فردت عليه وهي تهم بالانصراف إلى الداخل

- جيد.

فانتبه أنها تقصدت تجاهله، ألا تعيره انتباها كنوع من الانتصار لنفسها، الحقيقة هو يعلم أنه يستحق فلقد كان حقا باردا الأيام

الماضية، ثم انتبه يوسف أنه قد سقطت منها ورقة، فالتقطها ثم جلس إلى الأريكة يقرأها، كان خط يدها منمق رقيق ولكن من الوهلة الأولى تستطيع أن تتأكد من أن من كتبت تلك الكلمات كانت غاضبة يتأرجح قلمها بشدة بين أصابعها تقاوم ما ينهك قواها وكأنها تخوض حرب كتبت:

تنفسيه.. لا تسأميه، لا تزهديه.. تعلمي أن تعشقيه، أن تملكيه،

ثم اسريه، ثم اتركيه، يأتي إليك مهرولا مترجيا، متوسلا، يا حلوتي كوني معي، كوني أنا،كوني أنا، روحي وريحاني ونور. وبلا غرور، تدللي، وتمايلي، وتلذذي كلماته، فلتهزمي هذا الفتور.. هيا اضمدي شريانه، هيا اسحقي أحزانه.. هيا اجذبيه إلى دناك المشمسة، ثم اتركيه يتنفسك وتنفسيه.. تنفسيه.. لا تسأميه..

فطوى الورقة وأطبق يده عليها بأحكام، فهي من أوشت له بما تفكر فيه تلك الصغيرة الماكرة، ثم هرول ليلحق بها داخل المنزل، واقترب منها خلسة ثم قال:

- سأذهب لتناول التوت.

فأجابته:

- فلتذهب، وما شاني؟

نظر إلى عيناها بحنان:

- أنا أحب التوت وأنت تعلمين ذلك جيدا، ألم تخبريني يوما أن شأني شأنك وأنني قريبا سأهتم بما تحبين؟

فتعاود النظر إليه بعينين لم تعد تستطع المقاومة أكثر:

- ولكن أنت لا تهتم

- من أخبرك هذا؟

- أنت من أخبرتني في كل مرة عاملتني بجفاء ثم تركتني أتجرع وساوس الشيطان، فتارة أكن على يقين أنني لي مكان بقلبك

وكثيرا لا أفهم شيئا، أشعر بك كأنك تعاقبني ولكن لا أفهم علام كل ذلك.

- أنت تظلميني وأنا لم أعد أستطيع تحمل المزيد من الظلم، الآن قرري هل ستذهبين معي لتناول التوت؟

فنظرت أمل إليه في سرور، لقد كانت تعشق التوت، لطالما قدس جميع من بالبيت شجرته بل وخصصوا ثمارها لأمل وحدها، كان جدها يخبرها دائما أن تلك الشجرة توقفت عن

إيتاء ثمارها فجأة ولم تثمر من جديد سوى يوم أن جاءت أمل إلى البيت، كانا يخبراها أن هناك شيء مشترك بينها وبين تلك

الشجرة التي ظنوا أنها عقمت ولكن مع قدومك لحياتنا يا أمل عاد موسم التوت إلى هذه الشجرة من جديد.

- أجيبيني هلا ذهبنا سوياً؟ فنظرت له بعينيه يحملان الحيرة والحزن

- أنا؟! ربما لن توافق جدتي.

- بل ستذهبين معي إلى الحقل، أخبرتني جدتك أنك تحبين التوت، وأنا يوم ذهبت إلى الحقل كانت الشجرة تضج به، (ثم

تنهد) لا أعلم متى!

فلم لا تذهبي اليوم ولماذا ستمانع جدتك؟

- أتعلم أن هذه الشجرة شجرتي أنا، لقد أثمرت يوم جئت إلى البيت هنا فقط فراح يتنهد من جديد بألم عميق وكأنه عاد

بالذاكرة إلى يوم غرسها بيده هو ومنى، لمعت أمام عيناه كلمات منى بخطابها الأخير وحزنها وهي تخبره أن شجرة التوت عقمت وأن موسم التوت قد أضاع طريقه إليهم، ثم راح يسترجع سؤال منى له بالخطاب (تري هل ستثمر شجرتنا من جديد يا يوسف؟)

- لقد أثمرت يا منى، الآن علمت لمّ؟ ولم عاد إلينا موسم التوت بقدوم أمل عاد يبتسم لأمل برقة مراقباً شغفها وسعادتها، وهي تتحدث:

- سأذهب معك، ولكن استأذن لي من جدتي لعلك تجعلها توافق.

- حسنا يا أميرة لك هذا، راح يوسف ينادي والدته

- أمي! يا أم يوسف! فنادتهم والدته إليها، كانت تجلس بغرفتها شريدة الذهن لا زالت تغوص في ذكرى تجددت بعد أن ظن الجميع أنها صارت من الماضي. يحدث أن بعض الأشياء لا تخمد أبدا، هي فقط تهدأ وتختبئ تحت رماد كاذب ولكن تظل تتأجج تنتظر فرصة واحدة ليكشف أحدهم عنها غطاءها الساتر لتعود فتحدث فوضى أكبر من عهدها الأول، تعود لتعلن أنه بعض الأشياء لا تموت.

- مرحباً أحبائي، هل ناديتني يا يوسف

- نعم يا أمي كنت ذاهب لآكل التوت الذي اشتقت إليه، واقترحت على أمل أن تأتي معي إلى الحقل، ونحن الآن ننتظر

أن تسـمحي لهـا.

– وهل تريدين الذهاب معه يا أمل؟

– أنا أريد أن آكل توت فقط؟

فضحكت والدته وأشارت لها بالموافقة:

– اذهبي يـا حبيبتي فقـد مـر وقت طويـل منـذ أن ذهبت للتنـزه آخـر مـرة.

حلقت أمل إلى غرفتها تتنقل بين طيات ملابسها، ترتدي هذا ثم تنظر في المرآة

– لا، لا، هذا يجعلني سمينة

ثم تعود لتنتقي فستانا آخر، وآخر، وآخر، وأخيراً تهتدي لهذا الفستان الأزرق السماوي الذي يشبه كثيرا لون عينيها، ثم تهدأ قليلا وتجلس مهمومة:

– لـم الآن؟ ومـاذا حـدث مـن قبـل ليجعله يتوارى عني؟ ومـاذا تغير الآن حتى يأتي إلى فيدعوني إليه؟ أنا حقا حائرة، ولكن لا يهم، ما يهم هو أنني اليوم سأقضي بعض الوقت برفقته، سأسمع صوته كثيرا، وأخيراً ارتدت ثيابها وتعطرت ثم خرجت اليهم

- أنا جاهزة يا جدتي

كان يوسف يجلس إلى جوار والدته يتناولان القهوة، نظر إليها مفتونا بهذا الجمال، لسان حاله ينطق إلى متى ستظل تفعل بي هذا.

- هيا بنا يا جميلة، والله إنك حقا جميلة

الفصل السابع عشر

قد نفقد احدهم ولكن لن يموت هو فقط سيواصل الحياه في ذكرانا التي لا تموت أبدا ثم سنلتقي بما يجعلنا نمضي قدما لا يوقفنا شيء، لهذا خلقنا، نعبد الله ونسعى في الأرض ونتأمل ما

حولنا ثم نظن في الله خير وكلنا إيمان ويقين أن رب العالمين عادل حنون لا يرضيه حزن عبده ولكن نحن من خلقنا في

عجل لا ندرك حكمة الله جيدا، لو أننا لن نحتمل لم يكن الله ليختبرنا ويبتلينا على قدر تحملنا. خرجا من البيت ومضيا سويا مجددا على نفس الطريق، كانت الشمس مشرقة يحمل النسيم العليل رائحة السعادة، وكان الطريق إلى شجرة التوت طويلا على الأقل نصف ساعة سيرا على الأقدام، للمرة الأولى يتحدثان وحدهما، تنفس يوسف عميقا ببطء وهو لا يدري ماذا سيقول أو كيف سيبدأ حديثه، هي أيضا كانت تسير ببطء تنظر إلى أصابع قدميها خجلا، تتحسس الأرض، تخاف أن تسقط من شدة الرهبة التي تملكتها، ما إن وصلا إلى الحقل حتى أشار إلى والده الذي كان منهمكا مع العاملين بالحصاد كي يعلمه بوصولهم، فأشار إليه والده مرحبا واعتذر له عن انشغاله:

- اجلسا في الظل، قليلا وسأنضم إليكما. جلس يوسف في ظلال شجرة التوت المثمرة ثم أشار إليها أن تجلس بالقرب منه،

فجلست أمل وبخاطرها ألف سؤال، نظر إليها وهو يعي تماما ما يجول برأسها:

– بماذا تفكرين الآن؟

– لا شيء.

– إذن، دعيني اقرأ لك الكتاب من آخر صفحاته، أنت تفكرين فيما يحدث لنا من يوم أن جئت إلى عالمك، أنت تفكرين بالكثير، لديك الآلاف من الأسئلة، أحبك يا أمل، ولا أرى معنى

لأيامي من دون أمل، صدقيني، لربما تحدثك نفسك أنني فقط أحببت جزءا من والدتك بك، لا وحق من جمعني معك اليوم

بعد أن كنت لا أنوي العودة إلى وطني، إن ما يجول بخاطرك ليس صحيح، وما أكنه بداخلي لك لا يمت للماضي بصلة، انظري لي يا أمل حين أحادثك فنظرت إليه وقد تملكت منها قشعريرة تكاد تصرعها:

– صغيرتي! ليس لدي الوقت ولا القدرة على سرد مقدمات لما أريد طلبه منك، أنت تعلمينه، وتعلمين لم تعمدت أن أصطحبك معي اليوم إلى الحقل، إلى هنا تحديدا، فهل أنا محق يا أمل؟ فنظرت إليه وهي تومئ برأسها، أي أعلم

– إذن اختصرت الكثير، أريدك زوجة لي، وأعلم أنك تتساءلين، أتعلمين لماذا؟ فنظرت إليه بعيون متسائلة:

– حقا أتسائل لماذا؟! ولماذا أنا؟! ولماذا الآن؟! فأجابها:

– لسبب واحد، أنني عشت في غربتي ثمانية عشر عاما جريحا، غريقا، مستسلماً، ساخطا على كل شيء، أحمل بداخلي الكثير من مشاعر الغضب وخيبة الأمل، لم يكن ما يحدث لي يؤلمني

بقدر ما كان يؤلمني أنني لم أجد أبدا إجابة للسؤال الذي لم أنفك أسأله لنفسي، لم يحدث لي هذا؟ لم أنا من ابتعد لأقاسي كل هذه الآلام غريبا وحيدا جريحا بلا أهل ولا وطن؟ عندك أنت وجدت الإجابة

فأجابته باستغراب

– عندي أنا؟

فنظر إلى عينيها مباشرة ثم أجابها

– بعينيك تحديدا يا أملي، عندما رأيتك وجدت الإجابة فورا، وجدت عمري الذي هدر بحزن عقيم لم أجني منه سوى عذابي، وربيعي الذي جف بعدما استنزفِه التمني والرحيل، رأيتهم وقد استحالوا إلى تسامح وحب وسلا م، صرت أعلم لم ابتعدت، لم

قاسيت، لم تعذبت وحيدا، أتعلمين لماذا ابتعدت ثمانية عشر عاماً في كل هذا العذاب؟ لقد أبعدني الله عن هذه القرية إلى

أن ينجبك لي والديك، ثم يربيك والداي، ثم آتي إليك في الوقت المناسب، لحظة أن رأيت عينيك للمرة الأولى علمت

حكمة الله من غربتي، رأيت كل سنواتي الضائعة تلاشت وكأنها دخان تبخرت واختفت تماما وحللت أنت مكانها لتعيدي إلى

سعادتي من جديد، أهديتني السعادة التي كنت قد فقدت الأمل

في إيجادها، وهبتني الأمل يا أملي لتعيدي إلى قلبي الحياة. حقا أنا أكبرك أعواماً ولكن لا أدري ما الذي يجعلني متأكد أنني سأجعلك سعيدة، لن أخذلك يوما، أعدك، الآن قلت كل ما عندي ولا أريد أن اسمع جوابك الآن، معك متسع من الوقت، خذي ما تريدين من الوقت لتفكري على مهل وتأكدي أنه أيا كان قرارك، فأنا سأظل دائما إلى جوارك ولو لم أكن زوجك فسأكون أخا كبيرا لك يرعاك ويقضي عمره في سبيل راحتك.

رفعت رأسها إليه وهي تبتسم ابتسامة الرضا والفرح:

- أنا معك.. فنظر إليها باستغراب:

- سريعا هكذا، ولكن لابد أن تتريثي قليلاً

- لا، أتظن أن قراري هذا وليد اللحظة، لا لقد اتخذته من يوم أن رأيتك، وقتها علمت أنك قريبا ستجلس أمامي هكذا وتطلب

منى ما تطلبه الآن، لقد ارهقني التمني وداعبني في أحلامي كلما غفوت، كان الجزء الأسوأ عندما أستيقظ لأصطدم بحقيقة أن ما عشته مجرد حلم، كثيراً ما أنذرت طيفك ألا يخدعني مجدداً متيقنة أنه لن أجني من أحلامي المتكررة بلا تحقيق تلك سوى الجنون، فلم يستجب يوما لما أقول، ظل يباغتني مرارا وتكرارا بلا كلل أو ملل، يغيب أيام ثم يعاود ليضرب من جديد هلاوس بصرية تصيبني، فأصير أراك في وجه كل عابر وأسأل نفسي لربما هو أشبه بهذا أو ذاك، هل يا تري صار بدينا أم ظل منمقا

كما كان في صوره القديمة التي أحتفظ بها، كلما قرأت رواية رأيتك بطلها وكثيرا سمحت لنفسي أن اكون أنا البطلة أيضا، عشت مع ظلك في الخيال ألف حلم وقصة ورواية، ثم عزمت في نفسي أن أحقق ما تمنيت بشدة حتى صار الصبر على رحيلك وانتظار عودتك عدو أضاف إلى قلبي سنوات فوق عمري الحقيقي، وصرت أحيا فقط لأنتظرك، لأختطفك إلى روحي فتسكنها وأسكنك، لم أكن أبالي إذا ما عدت زاهداً في

الحياة أو أنني قد لا أروقك، فقط تمنيتك بشدة ووضعت قلبك هدف أمام عيناي وراهنت نفسي أنني سأفعلها، وها أنا الآن أجلس إليك نتحادث كما أبطال رواياتي التي طالما أضفت إليها فصولا لم يكن قد كتبها الراوي لتكن نهايتها كما آمل أنا

وكما يحدث الآن، أنا من اجتذبتك إلى وأشكرك بشدة أنك لبيت ندائي ولم ترهقني كثيرا، أتعلم؟ لا أخفيك سراً، أنا أخشى

أن يكن ما يحدث الآن مجرد حلم آخر. فضحك يوسف ونظر إليها بدهشة:

- هو حقا حلم، أنت لا تبالغين، ولكن دعيني أسألك مجدداً كم تبلغين من العمر أيتها الماكرة؟

فضحكت:

- أبلغ من العمر ما سيجعلنا نعيش بسعادة إلى الأبد يا عزيزي، سأخبرك بها ثانيا، أنا معك، قولا واحدا لا يحتمل النقاش. تنفس بعمق وكأنما أغلق للتو صفحاته المؤلمة، وكأنما كلماتها كانت هي

أولى صفحات كتابه الجديد ثم أجابها بعينين وأخيرا

تحررت من حزنها:

– ليس مطلوبا منك أكثر من ذلك، فقط كوني معي، واتركي

لي البقية، أما الآن وبعد أن كشف كل منا عما بقلبه دعينا نفعل ما جئنا هنا لأجله، سأصعد إلى الشجرة لآتيك بأطيب توت. ابتسمت أمل وهي لا زالت لا تستوعب ما يحدث صعد يوسف "إلى الشجرة وراح يلتقط حبات التوت الناضجة ويضعها بإناء كانا قد أحضراه معهما، راح يقطف حبات التوت

تارة ويهز فروع الشجرة تارة أخرى لتسقط الأوراق على وجه أمل فتضحك بسعادة، ومع كل حبة كان يقطفها كان يغلق جرحا

نازفا بقلبه، ومع كل ورقة كانت تسقط كانت تدب به الحياة، وكأن ذكرياته المريرة وسنواته الضائعة تتساقط معها.

الفصل الثامن عشر

في المساء كان البيت هادئا، الطقس ربيعي ساحر، التف الجميع حول المائدة لتناول طعام العشاء الذي أعدته أمل بإتقان لتخرج به كل خبرتها احتفالا بمائدة الليلة:

– تذوق يا يوسف هذا الحساء، لقد أعدته أمل بنفسها. فارتشف قليلا منه ثم نظر إلى أمل:

– ما هذا الجمال؟! كنت على يقين أنك طباخة ماهرة فأجابته والدته بحماس

– أنا من علمتها الطبخ، ولكن شهادة حق لقد تفوقت على بكثير. فضحك يوسف ثم نظر إلى والدته باهتمام:

– لطالما تمنيت زوجه تجعل للطعام مذاقا مميزا كما تفعلين يا أمي.

فاستدركه والده ضاحكاً:

– لا. لن تجدها فأمك لا مثيل لها أبداً. فنظر يوسف إلى والدته ثم إلى أمل وكأنما يخبرهما أن يستعدا لما سيحدث ثم نظر إلى والده بجديه قائلا:

– لم لا يا أبي، تذوق هذا الحساء إن له مذاق مطابق تماما لحساء أمي المميز الذي أفضله على كل الطعام، لقد أعدته أمل

بنفس البراعة، حتى أنني لم أكن لأعلم لولا أن أمي أخبرتني، إذن لم لا أتزوج أمل فتعده لي كل يوم عاد والده للضحك مجددا:

– أسعد الله قلبك يا يوسف، من يسمعك تتحدث هكذا يظن أنك جاد فيما تقول. ترك يوسف الملعقة من يده ثم جفف فمه بالمنديل وعقد أصابع يديه تحت ذقنه ثم نظر إلى والده بجدية وأجاب:

– وما وجه الغرابة في هذا يا والدي، أنا حقا جاد فيما أقوله، سأتزوج أمل. لم يكن والده قد ابتلع طعامه بعد فراح يحاول ابتلاعه بصعوبة ثم تناول كوب الماء فارتشف القليل منه ثم وضعه جانبا بيدين مرتعشتين يحاول أن يتمالك نفسه، وقعت الكلمات على أحمد كما وأن الأمس يعود من جديد، ولكن هذه المرة لا يشبه اليوم الأمس أبدا، اليوم يقف يوسف بموضع صنعه لنفسه من سنوات عمره وأيامه، يقف متحديا لا يهاب شيئا، يعلم أحمد أنه شاء أو أبي فإن صدق ما قال يوسف ولم تكن مجرد مزحة فسيحصل على مبتغاه "عاد قلب يوسف لينتقم لنفسه إذن، قديما وقف أمامي لا حيلة له يطلب مني الإذن أن يتزوج بحبيبته ورفضت تعنتاً وظنا مني أنني هكذا أحميه، والآن يعود ليقف أمامي بنفس المطلب فيعيد طلبه الزواج من حبيبة أخرى مني، بين اليوم والأمس ثمانية عشر عاما تكللت بالكثير بما لن يستطع أحد تجاهله أو نسيانه، تضاءلت خياراتي وردودي ووجهات نظري جدا حتى تكاد تكن غير موجودة، و هل هذا يعقل؟

– أعد عليّ ما قلته يا بني.. فابتسم يوسف بغاية الهدوء

– سأتزوج أمل يا أبي، ما رأيك؟ كانت والدته تجلس هادئة

تأخذ وضع الاستعداد للدفاع عن أبنائها ما إذا حدثت هجمة مفاجئة من أحمد، أما أمل فكانت تراقب ردود أفعالهم باهتمام بالغ:

- ولكن يا بني فارق السن.. قاطعه يوسف ضاحكا:

- إلى متى يا والدي العزيز ستقف سنوات عمري حائلا أمام سعادتي!؟ ثم نظر يوسف إلى أمل بعينين محبتان كلهما إصرار وتحدي

- ما رأيك يا قمري؟ فنظرت أمل إليه بعيون لامعة، مبتسمة، متحدية كل صعاب العالم:

- أنا مستعدة لاستكشاف العالم بين يديك! ثم نظرت إلى جدها وجدتها بترجي وأمل

- أرجوكم دعونا نصلح ما أفسده الزمان، أنا أحتاج أباً وأخاً وصديقاً وحبيباً، قبل أنا أحتاجه زوجاً، أنا احتاج إليه بحق، وهو أيضا يحتاج إلى، أرجوك يا جدي لا تقف ضدنا مرة ثانية. وهنا تتدخل عائشة:

- أتسمح لي بالحديث يا أبا يوسف.

- أنت أيضا لديك ما تقولينه؟

- نعم، لدي الكثير، أنا زوجتك منذ أكثر من أربعين عاما، لم أعص لك أمرا يوماً، تشهد على ذلك؟

- أشهد

- يوم أن أمرتني ألا أنجب ثانيا سوى يوسف أطعتك، فصار حياتي بأكملها، أتظن من السهل علي أن يكون يوسف هو وحيدي وحياتي وكل ما أملك بالعالم ثم أراك تقذفه إلى منفى لا رحمة فيه؟

- تعذبت طوال ثمانية عشر عاما بعيدا عن ابني الوحيد، ولم كل هذا؟ لأنني لم أعص أمرك ولم أقل لك لا، لا تكسر قلب طفلي

وليتني فعلتها، لا يا أبا يوسف اليوم سأقولها للمرة الأولى، لن أسمح لك أن تعود لكسر قلوب أخرى يكفي ما كسر ويكفي ما ذبل ويكفي من مات. فستسلم أحمد أخيراً ثم يلتفت إلى يوسف:

- انظر إلى والدك يا يوسف، وأجبني عن سؤالي، هل ستسعد قلبها بحق؟ هل ستتزوج أمل لأجل أمل فقط؟

- نعم يا أبي أحب أمل فقط، وسأجعلها سعيدة ولو كان ثمن سعادتها عمري كله

- انظري لي يا أمل وأجيبيني أيضا، هل تدركين بكم يكبرك من

الأعوام؟ وهل تريدين أن تقاسميه حياته بإرادتك؟

- أدرك يا جدي وأنا مستعدة لكل شيء عدا أن يفارقني بعدما وجدته أخيرا

- إذن كل منكم يتحمل مسئولية قراره الذي اتخذتماه مسبقا، وما يحدث الآن ليس إلا تحصيل حاصل

- اسمح لي يا أبي، لن نفعل شيئا دون مباركتك

- يا بني، أريدك أن تعلم أن كل السنوات الماضية لم تمر على قلبي مرار الكرام كما تظن، لقد كنت أتعذب أكثر منك، جلدني الشعور بالذنب والحسرة على سنوات عمرك، والخوف من أن أواري الثري قبل أن ألتقيك مرة أخرى، لطالما حلمت بيوم تعود به من جديد فأضمك إلى قلبي، وعندما عدت صدمت، وجدتك شاب في هيئتك ولكن عيناك مرآة قلبك توشي بأن

عاصفة من شيخوخة ضربتك بشدة وأنا من فعل هذا أعلم، ويعلم الله كم قضيت أيام وليالي من التضرع والدعاء إلى الله أن يهبك العوض عما أفقدناك يا عزيزي، فهل تظن أنك ستتوسلني الآن أن تعود إلى السعادة وأنا أرفض..

لا وحق ما أكن لك بقلبي أنا لا أرفض ولا أبغض ما تطلب مني، ولكن فقط الأمر لم يخطر ببالي، وأنت يا أمل، أنت قرة عيني التي أحملها بقلبي وأستشعر بها رائحة الأيام الحلوة التي غادرتني، أنا فقط أخشى عليكم من

الزمان، ولكن اليوم سأترك جانبا ما أخشى وما بي من تسلط وأطلب منكما شيئا أخير.. عداني أن كل منكم سيهب الآخر من السعادة ما يعوض فقدانكم ما فقدتم أنتم الاثنان

- نعدك يا أبي، بحق ما أعادني إلى الحياة ألا اتركها تحزن أبدا.

- أنا أيضا أعدك أني ساكون سعيدة دائما

- إذن أبارككما. ومن بين كلمات التوسل وعبرات الفرح تنهض

عائشـة لتطلق الزغاريد ولتعلن أنه وأخيراً حان الوقت لتزور الأفراح هـذا البيت. أحيانـا تتوقـف بنـا السبل فنقسـم ألـف قسـم أننـا لـن نعـاود الحيـاة مـن جديـد، وأن مـا بقـي منـا بعـض البقايـا التـي لا تسـتطيع أن تكمـل معنـا طريقنـا القاسـي فنيـأس ونبتئـس ونزهـد حياتنـا بـكل مـا تحملـه.

لا نـدري أنـه فـي طرفـة عيـن قـد تأتيـك السـعادة فـي كلمـة أو جملة أكملها لك احدهم لا ندري أنه على قدر آلامنا لابد أن تكون آمالنـا فـي هدمهـا، وأنـه قـدر مـا سـلب الله منـك سيعوضك وربما أضعـاف.


تم بحمد الله

فهرس

عن الدار ومشروع النشر الحر

دار لوتس للنشر الحر هي أول دار نشر حرة يملكها كل كاتب، تعتمد مبدأ النشر الحر من خلال مشروع طموح يهدف إلى تخطي عقبات النشر ومساعدة الكاتب للنشر بطريقة تمنحه الحرية الكاملة وكل الحقوق والصلاحيات للتعامل مع كتابه دون استغلاله مادياً أو معنوياً، ودون احتكار لمجهوده الفكري في عملية تجارية، وبدون تكلفة مالية.

هي مشروع خدمي وليس تجاري، تدعم الكاتب الموهوب وتسانده، تحاول الارتقاء بمستوى الأدب وتهدف إلى احترام الكاتب والقارئ من خلال نشر كل ما هو جيد دون الإساءة لشخص، أو أشخاص، أو مؤسسات، أو أفكار، أو عقائد، أو ديانات، أو أنظمة سياسية.

إصدارات الدار

قلم عطر	خواطر	مجموعة مؤلفين
وعادت ريما	رواية	راضية موحوس
مثل ليلة حب	خواطر	أسماء إبراهيم
وكأني أحبك	خواطر	زهرة العدوي
عالم قراطيس قراطيس	أدب ساخر	هاني النجار
أوتار	خواطر	مجموعة مؤلفين
دماء على ثوب أبيض	رواية	نسمة أبو النصر
كوني أماً عظيمة	فكر	حاتم سلامة
أموات فوق الأرض	رواية	محمد جمال
بقلم رصاص	خواطر	أمنه محمد قناش
حريق على الجسر	رواية	هاني النجار
القدرات السحرية	تنمية ذاتية	بسام سامي
العالم لن ينتظرك	فكر	أحمد شاكر
عندما ينتحب الياسمين	خواطر	هنادي العبودي
مرايا	خواطر	مجموعة مؤلفين
البوهيمي	مجموعة قصصية	أحمد رشدي
أيها الشباب لا تفقدوا الأمل	فكر	عبد الجواد السيوطي
التشجيع يصنع المعجزات	فكر	حاتم سلامة
خريف مريم	رواية	صفا عبد الصبور
حلم صريع	خواطر	محمد باهي
مُتيم	خواطر	غادة مايز
يوميات رجل محسود	أدب ساخر	على عمر خالد
هدوء ما قبل الانفجار	خواطر	زهرة العدوي
الموؤودة	رواية	نادية بن الشيخ
أنين المساجد	فكر	نادية طاهر

صوت السماء	شعر	محمد ربيع العاني
طبق كشري	أدب ساخر	عبد الفتاح عطا
وأحببتك بعين قلبي	رواية	صفا غنيم
ما لا تعرفه عن الهجرة	فكر	عبد الجواد السيوطي
الأيام الأخيرة	رواية	مصطفى عبد العظيم
موانئ الرغبة	شعر	مروج حسين
١٠٣	رواية	محمد جابر
زمن الحنين	شعر عامية	رحاب عصمت الزيلعي
أوراق على دفتر الحنين	مجموعة قصصية	حسام الدين ريشو
أحببتُ شبحاً	مجموعة قصصية	حمادة هيكل
حكايات من التاريخ	تاريخ	طاهر عبد الرحمن
كلمات ربي (ج١)	فكر	تامر عوض صالح
وشم على كتف الحياة	شعر	محمد محسن
كيتو ياكيفو	رواية	محمد الحريري
يتيمة بأبوين	رواية	بتول عبد القادر
مائة عام على كوكب الأرض	رواية	محمد صبحي
نبوءة عاشق	رواية	رانيه عيسى
رصيف نمرة ٢	رواية	نجوى إبراهيم
قمر الدم	رواية	هشام الحمراوي
حنين الحنين	خواطر	نورا صبحي
نساء وقيود	رواية	أسماء إبراهيم
الذين أخفوا الشمس	فكر	هاني النجار
الآهات المكبوتة	مجموعة قصصية	رانيه عيسى
عن الذي استدان ليشتري الشقاء	رواية	هبة عبد المنعم
كتبتُ أحبك	شعر	محمود أبو زيد
فلاكا	مجموعة قصصية	مجموعة مؤلفين
الآدم وهي	خواطر	منى العطار

أحلام فجر	رواية	سعيد الشودفي
مفاهيم إدارية لثالث ألفية	علوم	رحاب العيسوي
عاشق الضي	شعر عامية	إيهاب سالم
أنامل قصصية	مجموعة قصصية	مجموعة مؤلفين
الضال	رواية	عبد الفتاح عطا الله
ماهر وسماهر وبئر النسيان	طرائف وحِكم	ماهر عطوه
مملكة روح	رواية	عبير عيد سليمان
خليج بلا وافدين	رواية قصيرة	سيد مصطفى علي
في ليلة شتا	شعر عامية	وسام عبده
الشيطانة وعصا الجحيم	رواية	أحمد أبو النجا
أنين وردة	رواية قصيرة	داليا الشنتناوي
لا تتعجلي الرحيل	خواطر	سعيد الشودفي
بدون	مجموعة قصصية	محمد الشحات
من الأكاديمية إلى الفيلا	مقالات	وليد العجمي
تفاعل متسلسل	رواية	حسام قنديل
بردية رع (ذهاب وعودة)	رواية	أسامة نصر الدين
كاتب ونساء وعبث	رواية	عبد السلام المساتي
جيهينا	رواية	أميرة طارق
مذكرات خادمة من مونار	رواية	جابر خمدن
بعيداً عن العالم	رواية	تهاني هدهد
قمر الدم (العودة)	رواية	هشام الحمراوي
سئمت الغربة	فكر	نسيبة الرحيلي





رقم الإيداع

2018MO5369

الترقيم الدولي ISBN

978-9920-790-10-9